صوت الحرف وأثره البلاغي

في

الإعجاز القرآني

إعداد

د/ أشرف محمود عبدالهادي الدمهوجي

مدرس البلاغة والنقد

في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر بالمنوفية

١٤٤٣هـ = ٢٠٢٢م

ض

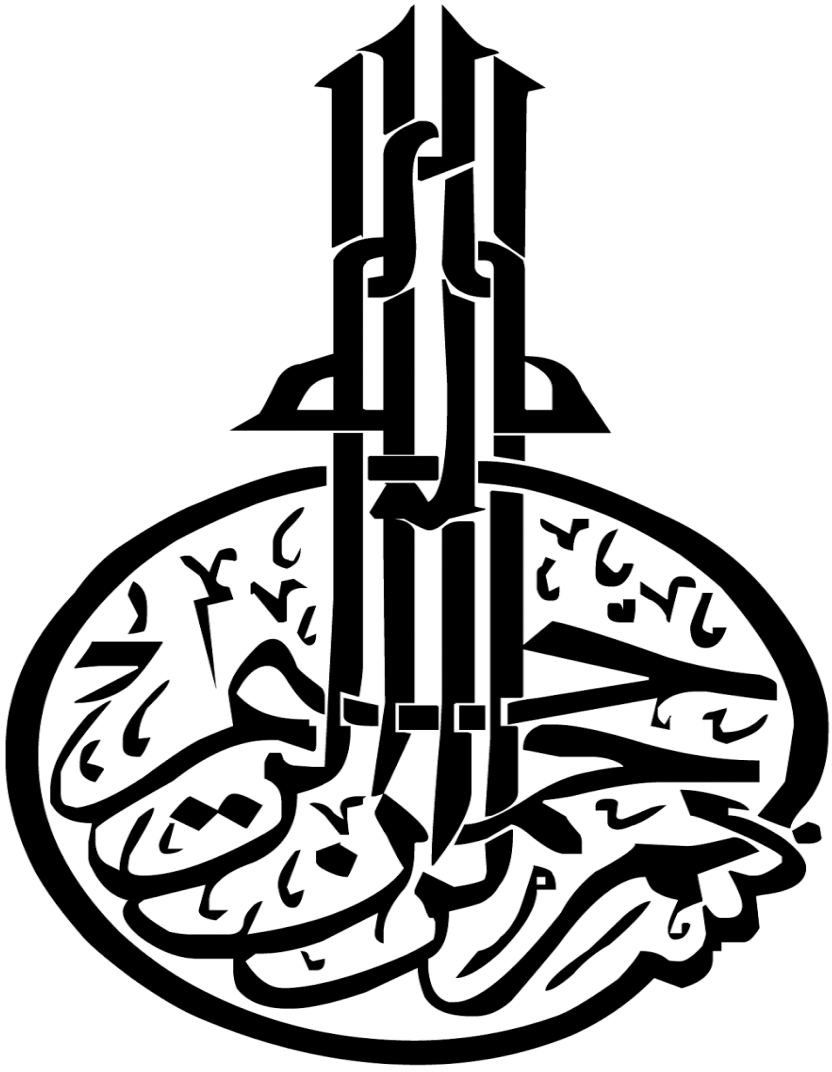

صوت الحرف وأثره البلاغي في الإعجاز القرآني

أشرف محمود عبدالهادي الدمهوجي
قسم البلاغة والنقد – كلية اللغة العربية بالمنوفية، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني:
ashrafeldamhogy.lan@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

هذه دراسة موجزة تكشف عن الأثر البلاغي لصوت الحرف وحركته في المعنىٰ؛ مساهمة في إدراك وجه من أوجه الإعجاز القرآني، ومما لا شك فيه أن محاكاة الصوت هي أساس هذا الإعجاز، حيث تلك المحاكاة التي هي الصورة المجسمة التي ترسمها الكلمة في أذهان المخاطبين، فيُحدث ذلك تصويرا بيانيا لكلمات القرآن الكريم يتم بالحركة والإيقاع، وفي ذلك لون من الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فقوة اللفظ ترجع إلىٰ قوة الحركة و الصوت؛ مما يساعد علىٰ تمثل المعنىٰ؛ فيتحقق بتلك الأصوات مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال، ومن ثمَّ أصبحت البلاغة الصوتية –كل وسيلة صوتية– يتحقق فيها مفهوم البلاغة المصطلح عليه عند البلاغيين، واشتملت الدراسة علىٰ الشواهد التطبيقية التي تبين هذا بوضوح شديد؛ مما يؤكد أن دراسة الصوت القرآني باب عظيم من أبواب الإعجاز البياني، فالمعاني ما هي إلا ألفاظ وكلمات، والألفاظ ما هي إلا أصوات، وصاحب الطبع السليم،

والذوق الرفيع يستطيع الوقوف علىٰ مواطن جمال الكلمات، وتمييز ما فيها من بلاغة وحسن، وإظهار الخصائص الصوتية في إبراز الدلالة انطلاقا من صفات الأصوات، وانتهاء إلىٰ مقصود المتكلم، فالدرس البلاغي يتميز بإظهار أثر مطابقة الصوت للمعاني، فكان القرآن معجزا بحركاته، وحروفه، وكلماته، وتراكيبه، فحلاوة القرآن وبلاغته نابعة من ألفاظه من حيث هي أصوات، توحي إلىٰ السمع بتأثيرات تجعل المعنىٰ قريبا إلىٰ فهم المتلقي، ولو أن ألفاظ القرآن تستوي كلها في الفصاحة، إلا أن الأساس في ذلك والإعجاز يكمن في انتقاء الأصوات المناسبة لتأدية المعاني، سعيا وراء الدقة في التصوير مع ما يتناسب والسياق، فالانتقاء يكون دلاليا بواسطة توظيف البنية الصوتية الدالة علىٰ المعنىٰ بإيقاعها وجرسها وإيماءاتها.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز البياني –بلاغة الصوت –بلاغة الحركة– المناسبة الصوتية–التناسق الصوتي.

The sound of the letter and its rhetorical effect on the Quranic miracle

Ashraf Mahmoud Abdulhadi Al-Damhouji
Department of Rhetoric and Criticism - Faculty of Arabic Language in Menoufia, Al-Azhar University, Egypt.
Email: ashrafeldamhogy.lan@azhar.edu.edueg

Abstract:

This is a brief study that reveals the rhetorical impact of the letter's sound and its movement in meaning; A contribution to the realization of one of the aspects of the Qur'anic miracle, and there is no doubt that simulating the sound is the basis of this miracle, as that imitation is the holographic image that the word draws in the minds of the addressees, and this creates a graphic depiction of the words of the Holy Qur'an that is done by movement and rhythm, and in that a color of The rhetorical miracle in the Noble Qur'an, the strength of the pronunciation is due to the strength of movement and sound; which helps to represent the meaning; It is achieved with these sounds that the speech matches the situation, and then the phonetic rhetoric - every audio medium - is realized in which the concept of rhetoric is realized by the rhetoricians, and the study included the practical evidence that shows this very clearly; Which confirms that the study The Qur'anic sound is a great chapter of the rhetorical miracle, for meanings are nothing but words and words, and words are nothing but sounds, and the owner of sound nature and good taste can stand on the

beauty of words, distinguish what they contain of eloquence and goodness, and show the phonetic characteristics in highlighting the significance from The characteristics of the sounds, and ending with the intended speaker, the rhetorical lesson is characterized by showing the effect of matching the sound to the meanings, so the Qur'an was a miracle with its movements, letters, words, and structures. If all the words of the Qur'an are equal in eloquence, the basis for that and the miracle lies in selecting the appropriate sounds to perform the meanings, in pursuit of accuracy .In photography, according to what suits the context, the selection is indicative by employing the phonetic structure that indicates the meaning with its rhythm, timbre, and gestures.

Keywords: Graphical miracles - The Eloquence of Sound - The Eloquence of Movement - Sound Appropriateness - Sound Consistency.

المقـــدمـــة

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١﴾ [سورة الكهف: ١] ، وبهر ببيان تراكيبه وبلاغة تعابيره العلماء، أنزله بحجج بيّنات، وفصّله سوراً وآيات، ونظمه بإحكام عجيب فاق جميع المعجزات، والصلاة والسلام علىٰ من أنزل علىٰ قلبه القرآن، فقرأه وتدبره ، وآمن بمحكمه ومتشابهه، ورضي الله عن صحابته والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، وبعد:

فإن الصوت (الحرف) هو البنية اللغوية الصغرىٰ المكونة للكلمة، والكلمة القرآنية معجزة في كتابتها، ومعجزة في بيانها، وفي اختيار حروفها، ومن ثمَّ كان الإعجاز في الجمل والتراكيب، فصار الصوت عنصرا أساسا في الإعجاز القرآني، والقرآن الكريم ينتقي الأصوات اللغوية بحسب دلالتها؛ قصدا لتجسيد المعاني، وتجسيم هيئاتها في أحسن صورة من الألفاظ، ومن ثمَّ تتواءم مع المعاني المعبر عنها في سياقات النص القرآني، وما تؤديه من تأثيرات ملموسة علىٰ الدلالات البلاغية؛ لتعزيز المعنىٰ وتأكيده في النفس، ولا تزال الدراسات القرآنية ميدانا خصبا للبحث، فكلما يقرأ الإنسان القرآن الكريم يجد آفاقا في كتابة الأبحاث عن إعجازه غير المتناهي.

والذي ينعم النظر في القرآن الكريم يجد أن هناك مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع تأثيريّ علىٰ الوجدان، تدركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة، فلا يعرف مصدر تأثيرها، وهذه المؤثّرات هي التي استعملها القرآن، وهي أحد أسباب رشاقة الأسلوب وارتياح النفس، وتتلخّص في: حكاية الصوت، والانسجام الصوتيّ الخاصّ، وفواصل الآيات، والمناسبة الصوتية،

والانسجام الصوتيّ العام، ومن ثَمَّ كان اختيار الحروف المناسبة للمعنىٰ المراد وجها من وجوه الإعجاز البياني ، فكل لفظة تتألف من مجموعة مقاطع، وكل مقطع يتألف من مجموعة حروف، وكل حرف عبارة عن صوت، والصوت ينتج عن حركات اللسان في الفم؛ فلم يستطع أحد أن يأتي بمثل آية منه.

فكان هذا البحث الموسوم بـ " **صوت الحرف وأثره البلاغي في الإعجاز القرآني**" مساهمة في إدراك وجه من أوجه الإعجاز، فاختيار الصوت بحركاته له أهمية كبيرة في المعنىٰ.

والبلاغة العربية بدورها تساهم في كشف المعاني لتلك الأصوات؛ حيث إبراز المعاني وتأكيدها، وترتيبها، وانتظامها، ومطابقتها لأحوال المخاطبين، فيكون التناسب بين أقدار المعاني والألفاظ معجزا، يقول الرافعي: "فلو اعتبرنا ذلك في تلاوة القرآن علىٰ طرق الأداء الصحيحة لرأيناه أبلغ ما تبلغ إليه اللغات كلها في هز الشعور واستثارته من أعماق النفس ...؛ ولأن تتابع الأصوات علىٰ نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خُلقت في نفس الإنسان، فهو متىٰ سمعها لم يصرفه عنها صارف من اختلاف العقل أو اختلاف اللسان"[(١)].

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

دفعتني أسباب كثيرة لاختيار هذه الدراسة، أهمها:

١ ـ بيان أثر البلاغة العربية ومساهمتها في إدراك وجه من أوجه الإعجاز القرآني في استعماله لحركة الصوت، ومن ثَمَّ الكلمات، ثم الجمل والتراكيب.

(١)– إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي/ ١٤٩، ط٨، دار الكتاب العربي – بيروت– ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

٢ – إبراز الأثر البلاغي في النظم القرآني؛ للتأكيد علىٰ أن الإعجاز كامن في الصوت قبل أن يكون في الكلمات والتراكيب.

٣ ـ إثراء المكتبة البلاغية بالدراسات التحليلية لهذا اللون من الدراسة في القرآن الكريم، الذي لا ينتهي فيه البحث، ولا يحد لإعجازه حد.

هدف الدراسة:

الكشف عن طبيعة العلاقة بين الصوت وما يدل عليه، سواء بواسطة المحاكاة، أو الإيحاء المرتبط أكثر بالمعنىٰ النفسي المستنبط من مخرج الحرف وصفته، مع استثمار التراث اللغوي والبلاغي.

منهج البحث وطريقته:

حرص البحث أن يسلك المنهج التطبيقي التحليلي القائم علىٰ التذوق من خلال الصوت في الكلمة القرآنية، محاولا الكشف عن الأثر البلاغي في النظم القرآني، وإبراز مظاهر الإعجاز الصوتي من خلال الربط بين الصوت والمعنىٰ المعبر عنه، والكشف عن أوجه التلاؤم من خلال تحليل مدلول ألفاظ الكلمة القرآنية، مستحضرا الغرض من سياقها، ثم تتبع أدوات البلاغة وأساليبها في الشواهد القرآنية.

خطة البحث:

اقتضت خطة البحث أن يتكون من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، تتبعهما خاتمة، ثم فهارس علمية متنوعة. أما المقدمة، ففيها الحديث عن الموضوع وأهميته، وسبب اختياره، والمنهج المتبع، وخطة الدراسة، وأما التمهيد بعنوان (**ماهية الصوت، وأثره البلاغي في الإعجاز القرآني**) وفيه محوران:

الأول: الصوت مفهومه ودلالاته.

الثاني: أثر الصوت البلاغي في الإعجاز القرآني.

ثم جاءت الدراسة في مبحثين:

المبحث الأول: بلاغة حركة الصوت ومناسبتها للمعنىٰ.

المبحث الثاني: بلاغة صوت الحرف ومناسبته للمعنىٰ.

ثم الخاتمة وبها أهم نتائج الدراسة، ثم الفهارس العلمية.

وبعد، فإني آمل أن ينال هذا البحث القبول والاستحسان، وما الكمال إلا لله وحده، وحسبي أنني أخلصت الجهد، وبذلت المستطاع، والله أسأل أن يمنحني الصواب والرشاد، ويلهمني الحكمة وفصل الخطاب، والله الموفق إلىٰ سواء السبيل.

الباحث

❁❁❁❁❁

التمهيد

(ماهية الصوت، وأثره البلاغي في الإعجاز القرآني)

المحور الأول: الصوت مفهومه ودلالاته

الصوت في اللغة: يقول ابن فارس(٣٩٥هـ):" الصاد والواو والتاء أصل صحيح، وهو الصوت، وهو جنس لكل ما وقر في أذن السامع"[١]، وهو يعني الجرس، والجمع أصوات، ورجل صائت: أي شديد الصوت[٢]. يقول الجاحظ(٢٥٥هـ): "والصوت هو آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع، وبه يوجد التأليف، ولن تكون حركات اللسان لفظا ولا كلاما موزونا أو منشورا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلاما إلا بالتقطيع والتأليف"[٣].

والصوت في الدرس الحديث: أثر سمعي تحدثه موجات ناشئة من اهتزاز جسم ما[٤]، وقد سجلت ألفاظ القرآن الكريم قمة الإعجاز والتلاؤم والتناسق بين أصواتها، والمعاني المعبر عنها من خلال توظيف الصوت داخل الكلمة لخدمة المعنىٰ المراد.

ومن ثمَّ تعد الأصوات اللغوية جانبا مهما في إعجاز التعبير القرآني، وهي ذات أبعاد جمالية شاخصة متحركة، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية، واللغة في جوهرها عبارة عن أصوات أو مقاطع صوتية، فهي المادة الأساس

---

(١)- مقاييس اللغة (صوت).

(٢) - ينظر: لسان العرب (صوت).

(٣)- البيان والتبيين، الجاحظ ١/ ١٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت: ١٤٢٣ هـ

(٤) -ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم أنيس وآخرون/ ٥٢٧، دار الدعوة .

المكونة للغة، فاللغة كما يرىٰ (ابن جني٣٩٢هـ): عبارة عن "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"[١]، ومن المعلوم أن بين الأصوات ومعانيها تناسبا، فيقول: "فأما مقابلة الألفاظ بما يشكل أصواتها من الأحداث فباب واسع...، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف علىٰ سمت الأحداث المعبر عنها"[٢].

وهذا الكلام يدل علىٰ الوظيفة البلاغية لتلك الأصوات التي هي لبنة الإعجاز البياني، "ومصطلح (الصوت) في الدراسات التراثية العربية يقابل الحرف"[٣]، حتىٰ إن بعض المحدثين لا يفرق بينهما؛ مما يدل علىٰ أن الصوت القرآني فيه إعجاز يأتي علىٰ هيئة خاصة من التشكل أو البناء، سواء أكان ذلك في كلماته، أم في جمله، أم في آياته، أم علىٰ مستوىٰ إيقاع السورة بأكملها، ومدىٰ ملاءمة ذلك واتساقه وانسجامه مع المعاني التي تهدف إليها السورة، وعلىٰ نحو من المواءمة والمطابقة العجيبة التي لا يمكن أن تحدث في كلام البشر بهذه الدرجة من التطابق والتناسب لمعاني الكلام[٤].

(١)- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي ١/ ٣٤، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢)- السابق ٢/ ١٥٢.

(٣)- سر صناعة الإعراب، ابن جني ١/ ٦، تحقيق: مصطفىٰ السقا وآخرين، مطبعة البابي، القاهرة.

(٤)- ينظر: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، عبدالحميد هنداوي/ ١٣، الدار الثقافية للنشر، القاهرة٢٠٠٤م.

ويؤدي هذا الجمال الصوتي الناشئ عن الاتساق والانسجام بين أصوات الكلمة والكلمات في الجملة إلىٰ سرعة دخول المعنىٰ إلىٰ العقل؛ لأن الأذن تتلذذه وترتاح إليه، كما تتمتع برؤية المنظر الجميل.

واللسان العربي يميزه الجانب الموسيقي الإيقاعي في أغلب نواحيه، والقرآن نزل بهذا اللسان، وجمالية التركيب القرآني تبرز في اتساق المقاطع وتناسقها وانسجامها، يقول الرافعي: "فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحانا لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسبها قطعة واحدة، قراءاتها هي توقيعها، فلم يفتهم هذا المعنىٰ، وأنه أمر لا قبل لهم به"[1]، ثم يظهر سبب هذا التناغم والتناسب الصوتي قائلا: "وحسبك بهذا اعتبارا في إعجاز النظم الموسيقي علىٰ ذلك الوجه الذي هو فيه؛ لترتيب حروفه باعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية في الهمس والجهر، والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشي والتكرير،..."[2]. كل هذا يدل علىٰ بلاغة الصوت(الحرف)، الذي يكمن فيه سر الإعجاز البياني من خلال صوت الحرف وصفته ومخرجه.

وستأتي الشواهد التطبيقية التي تبين هذا بوضوح شديد؛ مما يؤكد أن دراسة الصوت القرآني باب عظيم من أبواب الإعجاز البياني، فالمعاني ما هي إلا ألفاظ وكلمات، والألفاظ ما هي إلا أصوات، وصاحب الطبع السليم والذوق الرفيع يستطيع الوقوف علىٰ مواطن جمال الكلمات، وتمييز ما فيها من بلاغة وحسن، وإظهار الخصائص الصوتية في إبراز الدلالة، انطلاقا من صفات الأصوات وانتهاء إلىٰ مقصود المتكلم.

❁❁❁❁❁

(١)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوي، الرافعي ١/ ١٦٨.

(٢)- السابق / ١٦٩.

المحور الثاني: أثر الصوت البلاغي في الإعجاز القرآني

لا شك أن الدرس البلاغي يتميز بإظهار أثر مطابقة الصوت للمعاني، فنجد (ابن سنان الخفاجي ت٤٦٦هـ) يهتم بالحروف وبالناحية الصوتية كمقدمة للحديث عن الفصاحة، فمعرفة مخارج الحروف وصفاتها من الضرورة بمكان لمن يدرس علم الفصاحة والبلاغة؛ لأن الكلام ينتظم منها في إبراز معناه، ومطابقة مقتضاه، يقول في خطبة كتابه :"وذلك أن المتكلمين وإن صنفوا في الأصوات وأحكامها وحقيقة الكلام ما هو، فلم يبينوا مخارج الحروف، وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهموسها، وشديدها ورخوها"(١)، مما يدل علىٰ عناية البلاغيين بالصوت وأهميته في الدرس البلاغي.

ومن خلال الدراسات الصوتية تبين أن التلاؤم والانسجام المنبعث من تآلف الحروف في الكلمات، وتناسق الكلمات في الجمل من أبرز خصائص العربية التي تبهر الباحثين؛ ويرجع هذا إلىٰ أمرين: الأول: طبيعة اللغة، فهي عبارة عن أثر سمعي هو: الصوت اللغوي، والأمر الثاني: يتعلق بوظيفة اللغة في التعبير والإفصاح عما في النفس، في إطار يتم داخل نسق اجتماعي.

ومما لا شك فيه أن محاكاة الصوت هي أساس هذا الإعجاز، حيث تلك المحاكاة التي هي: الصورة المجسمة التي ترسمها الكلمة في أذهان المخاطبين، فيُحدث ذلك تصويرا بيانيا في كلمات القرآن الكريم يتم بالحركة

(١)- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي/ ١٧، دار الكتب العلمية ١٤٠٢هـ_١٩٨٢م.

والإيقاع، وكثيرا ما يشترك الوصف والحوار، وجرس الكلمات، ونغم الجمل في إظهار صورة من الصور، تدرك جمالها ومعناها الأذنُ والحسُ والوجدانُ، وفي ذلك لون من الإعجاز البياني في القرآن الكريم، فقوة اللفظ ترجع إلىٰ قوة الصوت.

يقول الرافعي: "وليس يخفىٰ أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت، بما يخرجه فيه مداً أو غنة أو لينًا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه علىٰ مقادير تناسب ما في النفس من أصولها؛ ثم هو يجعل الصوت إلىٰ الإيجاز والاجتماع؛ أو الإطناب والبسط؛ بمقدار ما يكسبه من الحدوة والارتفاع والاهتزاز وبعد المدىٰ ونحوها، مما هو بلاغة الصوت في لغة الموسيقىٰ"[1].

وتعد ظاهرة المناسبة بين الصوت والمعنىٰ في اللغة العربية من الأمور التي شغلت عددا من اللغويين العرب القدامىٰ، وقد أشار (السيوطي ٩١١هـ) إلىٰ أن لفيفا من علماء العربية وأهلها كانوا يطبقون جميعا علىٰ إثبات المناسبة بين اللفظ والمعنىٰ[2].

(١)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي ١/ ١٤٩ ط٨، دار الكتاب العربي – بيروت- ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

(٢)- ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ص ٤٩-٤٨، المحقق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

فحلاوة القرآن وجماله نابعة من ألفاظه من حيث هي أصوات، توحي إلىٰ السمع بتأثيرات تجعل المعنىٰ قريبا إلىٰ فهم المتلقي، ولو أن ألفاظ القرآن تستوي كلها في الفصاحة، إلا أن الأساس في ذلك والإعجاز يكمن في انتقاء الأصوات المناسبة في تأدية المعاني، سعيا وراء الدقة في التصوير مع ما يتناسب والسياق والموقف، فالانتقاء يكون دلاليا بواسطة توظيف البنية الصوتية الدالة علىٰ المعنىٰ بإيقاعها وجرسها وإيماءاتها، ومن المعلوم أن التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة التخيلية عن المعنىٰ الذهني، والأداة التي تصور المعنىٰ الذهني والحالة النفسية، إنما هي ألفاظ جامدة لا ألوان تصور، وشخوص تعبر، ومن هنا ندرك بعض أسرار الإعجاز لهذا اللون من تعبيرات القرآن.

ومن ثراء الإعجاز من خلال الصوت ما نجده في الفرق بين حكاية الصوت والمناسبة الصوتية، فالأول يعنىٰ به: اختيار جرس الحرف المناسب للمعنىٰ المطلوب، ومصطلح (الحكاية) قديم استعمله الخليل في العين، يقول: "آه: حكاية المتأوّه في صوته، وقد يفعله الإنسان من التوجّع...، فأخرج نفَسه بهذا الصوت لينفرج عنه ما به"[(١)]، أما المناسبة الصوتية: فهي تجاور الحروف بانسجام صوتيٍّ متلائم وعدم تنافرها، قال تعالىٰ: ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه:١٠٨]، فعند إمعان النظر في هذه

(١) – كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري٤/ ٤، المحقق: د/ مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

الآية الكريمة نجد أنها تحكي ذلك الجوّ المهيب يوم القيامة الذي تخشع فيه الأصوات؛ ولأجل تصوير هذا المشهد استُعملت أغلب حروف الهمس(فحثه شخص سكت) بكثرة في الآية، وهي حروف خفية لا وضوح لها في السّمع، مما يدل علىٰ دقة النظم القرآني في إظهار الانسجام الصوتي المتلائم ، فظهر جليا أن إعجاز القرآن الكريم المتمثل في نظمه وتركيبه يبدأ من هذه الوحدة الصغرىٰ(صوت الحرف) حيث تشكل بناء المفردات، ومن ثمَّ تشكل بدورها بناء الجمل والتراكيب، فاختيار الحروف المناسبة يسهم بشكل كبير في تأدية المعاني، وبناء عليه تشكيل الأنغام الحسنة يزيد من الإيقاع المؤثر، يقول:(السيوطي ٩١١هـ): "الانسجام: هو أن يكون الكلام لخلوه من العقادة منحدرا كتحدر الماء المنسجم، ويكاد لسهولة تركيبه وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقة، والقرآن كله كذلك"[1]، هذا إن دل علىٰ شيء، فإنما يدل علىٰ دقة النظم القرآني في اختيار كل حرف من حروفه، ثم كلماته ، ثم الجمل والتراكيب؛ فكان القرآن معجزا علىٰ مر العصور والدهور.

❁❁❁❁❁

(١)- الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ٣/ ٢٩٦، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

المبحث الأول
بلاغة حركة الصوت ومناسبتها للمعنى

الحركة أو العلامة الإعرابية أصل أساس من أصول الضبط في القواعد الإعرابية، ولما ضبط القرآن الكريم علىٰ يد (أبي الأسود الدؤلي ت٦٩هـ)، صار ذلك قاعدة متبعة في القرآن باتفاق الأئمة، وما خرج عن تلك القاعدة يعد من القراءات الشاذة التي لا يتعبد بها، ولكن يظل الاستشهاد بها علىٰ لغات العرب مقبولا، غير أن العدول عن هذه القاعدة في القرآن فيه سر من أسرار البلاغة العربية، وبخاصة إذا كان العدول مقصودا؛ لتحقيق غرض بلاغي، أو دلالي.

يقول الرافعي: "ولا يذهبن عنك أن الحروف لم تكن في القرآن علىٰ ما وصفنا بأنفسها دون حركاتها الصرفية والنحوية، وليست هذه الحركات إلا مظاهر الكلم"[(١)]، فهذا سر من أسرار الإعجاز في النظم القرآني؛ حيث درس علماء اللغة قديما وحديثا هذا الأمر، وبينوا أن العربية تتخذ من الصائت[(٢)] وسيلة للتفريق بين دلالات مختلفة، ومعان متقاربة وسعوا إلىٰ الكشف عن

(١)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي ١/ ١٥١.

(٢)- الحروف في اللغة العربية تنقسم إلىٰ صوامت وصوائت(حركات)، والصوامت هي الحروف التي ننطقها أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، أما الحركات فهي الحركة التي توضع علىٰ هذا الحرف الصامت وهي الفتحة بَ، والكسرة بِ، والضمة بُ ... إلىٰ آخره هي الحركات.

تلك المعاني[1]، كما أشار علماؤنا إلىٰ أن صفتي القوة والضعف تتصلان بالمعنىٰ، ومن هؤلاء العلماء سيبويه ، والمبرد ، وابن جني[2].

وقد اتفقت نظرة الدراسات اللغوية الحديثة مع آراء القدماء في قدرة الحركات علىٰ توجيه معاني الألفاظ علىٰ وفق ما يريده المتكلم، يقول الدكتور عبدالصبور شاهين: "ولعل أفضل ما يصور علاقة الصوامت بالحركات في بنية الكلمة أن نقول: إن الصوامت وهي مادة الكلمة الثابتة تحمل المعنىٰ الأصلي، الذي تدل عليها بمجموعها، وأن الحركات تشخص المعنىٰ، حين تبرزه في وضع معين، فهي التي تستقل بتوجيه الدلالة إلىٰ حيث يريد المتكلم – هذا هو عين البلاغة العربية– وأقوىٰ هذه الصوائت هي: الضمة[3]، ثم تليها الكسرة، وأخفهن الفتحة؛ إذ إن النطق بالضمة يحتاج إلىٰ جهد عضلي أكثر من الفتحة والكسرة؛ وذلك أنها أي: الضمة لا تنطق إلا بانضمام الشفتين وارتفاعهما، ولا تحتاج الكسرة ولا الفتحة إلىٰ ذلك كما هو ظاهر ومعلوم"[4]، ومما يظهر تلك العلاقة بين الصوامت والصوائت، قولك:(قلتُ) بالضم تدل علىٰ الشخص المتكلم، و(قلتَ)بالفتح للشخص

(١)– للمزيد ينظر: تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري / ٤٨٣، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٢)– ينظر: الكتاب٢/ ٢٥٨، المقتضب٢/ ١٨٩، الخصائص١/ ٦٥، شرح الكافية١/ ٢٠.

(٣)– ستكون الشواهد التي تبين أثر بلاغة حركة الصوت في هذا المبحث–كنموذج يثبت غاية الدراسة– منصبة علىٰ حركة (الضمة) بمفردها، أو نطق الحرف بين الضمة وغيرها من الحركات.

(٤)– ينظر: التصريح ١/ ٥٨، والمنهج الصوتي للبنية العربية٤٤، ومعاني الأبنية في العربية١٠٠.

المخاطب، و(قلتِ)بالكسر للمؤنثة المخاطبة، كل هذا يدل علىٰ أن تغير الحركة وحدها في الكلمة الواحدة يعطي معاني مختلفة كما هو الحال في " العِسل-بكسر العين- ما عسل به الرأس، والعُسل-بضم العين- المادة التي يغتسل بها، والذِلّ-بكسر الذال- ضد الصعوبة، والذُّل- بضم الذال- ضد العز، والغِلّ- بكسر الغين- الغش والعداوة، والغُلّ-بضم الغين- العطش، وهو الغُلة، والبُرّ-بضم الباء- القمح، والبِرّ-بكسر الباء- الإحسان، والبَرّ- بفتح الباء- اليابسة، ...إلخ"[1]، فهذا يدل دلالة واضحة علىٰ أن الحرف وحركته لم يأت اعتباطا، ولكن لكل تعبير معناه الخاص الذي يفهم من خلال السياق. يقول د/ محمد حسن جبل: "العلامة إشارة منطوقة أو مكتوبة، تعبر عن تقرير منشئ الكلام للعلاقة بين معاني المفردات حسب ما يريد، ثم إن تلك العلامات هي في الوقت نفسه تدل السامع والقارئ علىٰ تلك العلاقات التي أرادها منشئ الكلام"[2]، وهذا يدل علىٰ الارتباط الوثيق بين العلامة والغرض الذي جعل العرب تعرب كلامها، وهذا هو مدار الدرس البلاغي؛ لتأدية المعاني والأغراض، حيث قامت الحركات بهذا الدور الرائع في بيان اتساق ألفاظ القرآن بحروفه، ومفرداته، وتراكيبه، فأول شيء تحسه، أو تشعر به أذنك في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسّمت فيه الحركة والسكون تقسيمًا منوعًا يجدد نشاط السامع لسماعه.

والشواهد القرآنية التي تبرز الأثر البلاغي للحركات كثيرة، وقد سماه الشيخ "محمد عبدالله دراز" (الجمال التوقيعي في ألفاظ القرآن الكريم)، و

(١)- ينظر: علم الدلالة، د/ إبراهيم أنيس/ ٥٤، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦.

(٢) دفاع عن القرآن الكريم أصالة الإعراب ودلالته علىٰ المعاني في القرآن الكريم واللغة العربية، محمد حسن حسن جبل / ١٣٩، ط٢، البربري للطباعة الحديثة، مصر ٢٠٠٠م.

يسمىٰ أيضا بـ (النسق الصوتي)، هذا النسق الذي تراه بيّنا رائعًا في كلمات القرآن، وفي اختيارها بدقة (حرفا وحركة)، هو الذي اهتم العلماء ببيانه-وهو مدار البحث والدراسة- حيث التعاون والتكاتف بين الحروف ما بين شكلها، وما بين تلاؤمها، وما بين أثرها، وما بين تماثلها وحركاتها ... إلخ؛ ينتج عنه في النهاية الإشارة إلىٰ موضع الكلام، وهو (النسق الصوتي)، أو ما يسمىٰ بـ (الجرس القرآني) أي: صوت القرآن، وقد بيَّن الرافعي ذلك في الحديث عن كلمة "النُّذُر" في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦]، من انسجام الحركات ودورها في المعنىٰ، وهذا مثالٌ ضربه علىٰ موضوع الحركات، تمهيدا للحديث عن إيثار كلمة علىٰ أخرىٰ تشترك معها في أصل الدلالة[1].

فنجد أثر بلاغة حركة الصوت (الضمة)، وهي أقوىٰ الحركات يتناسب تمام المناسبة مع المقام؛ حيث هذا الإنذار القوي الشديد(أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا)، فكان اختيار تلك الحركة؛ لرسم هذا الموقف وتصويره الدقيق؛ وللدلالة علىٰ قوة الكلمة أو اللفظ، ومن أثرها البلاغي كذلك ما تدل عليه من اجتماع واتحاد للشفتين عند النطق بها وخاصة بحرفين متتاليين بنفس الحركة؛ "إشارة إلىٰ أن جواب الكل للكل كان متحداً مع افتراقهم في الزمان، حتىٰ كأنهم كانوا علىٰ ميعاد"[2]، وقد أخبر القرآن عن إنذارهم بإرسال النذر﴿وَلَقَدۡ

(١)- ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي/ ١٥٧.

(٢)- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي،٢٠/ ٢٣٧، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر:٤١])، فالمراد به الجنس ، فإن نذارة بعض الأنبياء كنذارة الكل؛ لأنه لا يأتي أحد منهم إلا وله من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، والمعجزات كلها متساوية في خرق العادة(١)، وتكرار مادة (نُذُر) في السورة؛ لمناسبة المقام، ومطلع السورة؛ لأن انشقاق القمر" آية للرسول المنذر لكم بها"(٢)؛ وليكون في الكلام تكرير التوبيخ والتهديد والنعي عليهم عقب قوله:﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر٤-٥] ، "ومقام التوبيخ والنعي يقتضي التكرير"(٣)، فالسياق العام يقتضي أنه لا يلقىٰ في النار أحد إلا سئل علىٰ جهة التوبيخ عن النذر﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:٢١] ، فالضمة بطبيعة نطقها وصفاتها فيها معنىٰ الثقل مع الدلالة علىٰ التجمع والاتحاد، فوقف عندها الرافعي؛ ليبين الأثر البلاغي لحركة الضمة قائلا: "عند التأمل لحركاتها(ٱلنُّذُرُ)؛ نجد أن الضمة ثقيلة لتواليها علىٰ النون والذال معًا "نُذُر" فضلًا عن جسأة هذا الحرف ونبوه في اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام، فكل ذلك مما يكشف عنه ويُفسح عن موضع الثقل فيه، لكنه جاء في القرآن علىٰ العكس، وانتفىٰ من طبيعته، يقصد أن هذا اللفظ نفسه لو نظرت إليه في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر:٤١]، تجده ليس فيه الثقل الظاهر بهذا الوضع لما سبقه من حروف، أما في هذه الآية تجد جمالًا شديدًا

(١)- ينظر: السابق ١٩/ ١٢٩.

(٢)- نظم الدرر ١٩/ ٨٧.

(٣)-التحرير والتنوير، ابن عاشور٢٧/ ١٩١ ، الدار التونسية للنشر- تونس ١٩٨٤هـ.

باستخدامها (وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ) إذا تأملت التركيب، وتذوقت مواقع الحروف وحركاتها في حسّ السمع، وتأمل مواضع القلقلة في دال (لَقَدْ)، وفي الطاء من (بَطْشَتَنَا) هذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلىٰ واو (تَمَارَوْا) مع الفصل بالمد، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات، إذا هي جزّت علىٰ اللسان؛ ليكون ثقل الضمة عليه مستخفّا بعد؛ ولكون هذه الضمة قد أصابت موضعها ،كما تكون الأحماض في الأطعمة، ثم ردد نظرك في الراء من (تَمَارَوْا)، فإنها ما جاءت إلا مساندة لراء (ٱلنُّذُرُ)، حتىٰ إذا انتهىٰ اللسان إلىٰ هذه انتهىٰ إليها من مثلها، فلا تنبو فيه، ثم تتعجب لهذه الغنة التي سبقت الطاء في نون: (أَنْذَرَهُمْ)، وفي ميمها: (أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا)، وللغنة الأخرىٰ التي سبقت الذال في(النُّذُرِ)"[1].

ومن الشواهد التي تؤكد أن لحركة الصوت دورها البلاغي في تناسب المعاني، قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠]، حيث قرأ حفص(بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ) مضمومة الهاء علىٰ أصل حركتها، وقرأ الباقون (عليهِ) بكسر الهاء؛ لمجاورة الياء[2]، وفي اللغة الفصحىٰ نجد أن حركة ضمير الغائب إذا سبق بياء أو بكسر؛ فإنه

(١)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي/ ١٥٧.

(٢)- كتاب السبعة في القراءات، أحمد بن موسىٰ بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي / ٦٠٣، المحقق/ شوقي ضيف، دار المعارف – مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ، وينظر: النشر في القراءات العشر٢/ ٣١٠.

يكسر، كما في (عليه) من قوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:١٢٣]، وقوله:﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ ﴾ [الأحزاب:٣٧]، فالضمير (هاء الغيبة) جاء مكسورا في كل هذه الحالات، إلا ما ورد في الآية محل الشاهد، وهو ما يمثل خروجا عن النمط المتعارف عليه في اللغة والقاعدة المطردة[١]، غير أن القرآن لا يتخذ أسلوبا آخر في الكلام إلا إذا كان وراء ذلك سر بلاغي.

والسر البلاغي في اختيار حركة الصوت(الضمة) مناسبة ما يستدعيه المقام من تعظيم شأن تلك البيعة؛ لذا قدم الظرف اهتمامًا به(بِمَاعَٰهَدَ)، ففيه إيحاء أكثر إلىٰ تكريم المبايعين، وتعظيم شأن البيعة، حيث نجد في سبب نزول الآية أنها نزلت في بيعة الرضوان؛ ونظرا لعظم شأنها كان الله شديدا في وعيده للمخالفين[٢]، يؤكد هذا أنه لما قال:(إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ) أكده تأكيدا علىٰ طريق التخييل، فقال (يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ) يريد أن يد رسول الله التي تعلو أيدىٰ المبايعين: هي يد الله؛ كل هذا غرضه البلاغي الدلالة علىٰ زيادة التأكيد والتقوية، وحملهم علىٰ الوفاء بها، والله تعالىٰ منزه عن الجوارح، وعن صفات الأجسام، يقول "الزمخشري" في هذا المعنىٰ: "تقرير أن عقد الميثاق

---

(١)- ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيۡطَٰنُ أَنۡ أَذۡكُرَهُۥۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلۡبَحۡرِ عَجَبٗا﴾ [الكهف:٦٣]، ولم يأت في القرآن إلا في هذين الموضعين.

(٢)- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ٨/ ٩٢ ، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ..

مع الرسول كعقده مع الله من غير تفاوت بينهما"[1]، فكانت البيعة أمرا عظيما؛ لذا ناسب المعنىٰ تلك الحركة القوية (الضمة)، وأضاف "أبو السعود" قائلا: "بضم الهاء، فإنه أبقىٰ بعد حذف الواو توسلا بذلك إلىٰ تفخيم لام الجلالة"[2]، وهذا فيه من التناسب لهذا التفخيم للجزاء العظيم، حيث الجنة وما فيها من رضوان الله العظيم، والنظر إلىٰ جماله الكريم، ومما يؤكد هذا الغرض البلاغي مجيء الحصر المفاد من (إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ) حصر الفعل في مفعوله، أي لا يبايعون إلا الله، وهو قصر ادعائي بادعاء أن غاية البيعة وغرضها هو النصر لدين الله ورسوله، فنزَّل الغرض منزلة الوسيلة، فادعىٰ أنهم بايعوا الله لا الرسول.

ومن ثمَّ كان الإتيان بالضم مناسبا وملائما للمعنىٰ المراد، فقد وردت الآية في سياق أمر عظيم، فالبيعة تستلزم التعظيم والتوثيق، والضم فيه دلالة علىٰ هذه المناسبة، ولذلك ورود الضمير المجرور في (عليه) مكسورا حسب القاعدة المألوفة يكون ترقيقا، وهذا لا يتناسب والمقام، فالمعاهدة والوثاق عظيم علىٰ كاهل الصحابة، فكان للضم دور في إظهار الموقف وتصوير جسامته في صورة صوتية جمالية مناسبة، ولخص السمرائي العلة البلاغية لهذه الحركة قائلا: "سبب اختيار الضم في (عليهُ) أن الكلام في صلح الحديبية

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ٤/ ٣٣٥، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١ – ١٤٠٧ هـ.

(٢) تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ ٨/ ١٠٦، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

والعهد الذي كان بينهم وبين الرسول وهو عهد علىٰ الموت، فكان الضم في (عليهُ) يؤدي إلىٰ تفخيم لفظ الجلالة؛ لتفخيم العهد فأراد سبحانه أن يتسق ويتناسق تفخيم العهد مع تفخيم لفظ الجلالة حتىٰ لا يُرقق لفظ الجلالة بالكسرة، وأن الضمة هي أثقل الحركات بالاتفاق وهذا العهد هو أثقل العهود؛ لأنه العهد علىٰ الموت، فجاء بأثقل الحركات مع أثقل العهود"[١].

ومن الشواهد التي تؤكد أن لحركة الصوت أثرا في بلاغة النظم القرآني: ما جاء في نطق صوت (الجيم) بين حركة الضمة والكسرة في كلمة (جُذاذ، وجِذاذ): في قوله تعالىٰ: "﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[الأنبياء:٥٨]، والجذ: كسر الشيء وتفتيته، "والمكسورُ جمع جِذاذَة بالكسر[٢]، والمضمومُ جمع جُذاذَة بالضمّ[٣]،والمفتوح مصدرٌ"[٤].

والسر البلاغي لحركة الضم في الآية الكريمة؛ ما توحي به من الجهد والثقل، فالحدث بحاجة إلىٰ حركة صوت تحاكي ذلك الجهد، فكانت

(١)-لمسات بيانية: فاضل بن صالح بن مهدي بن خليل البدري السامرائي/ ٦٠٨.

(٢)- "الجذ: كسر الشيء وتفتيته، ويقال لحجارة الذهب المكسورة ولفتات الذهب: جُذاذ، يقول ابن فارس:" الجيم والذال أصل واحد إما كسر وإما قطع يقال: جذذت الشيء كسرته" (مقاييس اللغة (جذ).

(٣)- "والجُذاذ بالضم جمع جذيذة، وهي القطعة الواحدة المكسورة، وجِذاذ بالكسر جمع جذيذ وهو الشيء المتكسر إلىٰ قطع، فالجُذاذ جمع للأصل، وجِذاذ جمع للفرع" (الصحاح ، لسان العرب(جذ).

(٤)- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، ٨/ ١٧٣، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

الضمة التي تسبق الكسرة في الثقل والقوة أنسب وأبلغ في تأدية المعنىٰ، فضلا عن أن ذلك الجهد ناسب قسم سيدنا إبراهيم-عليه السلام-؛ لأن القسم مبالغة بالفعل وتأكيد له وحال الأصنام؛ لكونها حجرا، أو خشبا، أو نحاسا يستدعي استمرارية وقوة في الضرب، وكأنها انتفاضة غاضبة في وجوه الذين سلكوا طريق الضلال وحادوا عن سبيل الحق"[1].

ومن الشواهد التي تؤكد بلاغة حركة الصوت ودورها في تناسب المعاني، وبيان دقة النظم القرآني؛ نطق حرف الذال في كلمة (الذُّل) (بين الضمة والكسر): حيث اختلاف الحركات يؤدي إلىٰ اختلاف المعاني، وفي ذلك تناسب شديد مع المعنىٰ ، والسياق مهيمن علىٰ ذلك، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾ [الإسراء:٢٤])، فالضمة علىٰ الرغم من ثقلها إلا أنها ناسبت المعنىٰ هنا في كونها موحية بالحنو والرفق واللين في التعامل مع الوالدين في ضمهما إلىٰ شغاف القلب والإحسان إليهما، والسياق سياق رحمة وإشفاق، يشف التعبير ويلطف، ويبلغ شغاف القلب وحنايا الوجدان، فهي الرحمة ترق وتلطف؛ حتىٰ لكأنها الذُّل الذي لا يرفع عينا، وكأنما للذل جناح يخفضه إيذانا بالسلام والاستسلام، وكلمة(الذل) تأتي متناغمة ومتسقة تمام الاتساق مع تلك الدلالة، فتوالي الأحرف الذال واللام يوحي تمام الإيحاء بالتذليل، وإنك لتجد ذلك واضحا في سهولة النطق بتلك الكلمة مع ما نستشعره من وجود الضم لصوت الذال علىٰ حنو ورفق لا

(١)- المفردات في غريب القرآن: الأصفهانىٰ/ ٢٨٧، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤١٢ هـ. وينظر: لسان العرب(جذ).

يكذبه الحس والشعور، فنجد أن اختلاف الحركات دليل لمعرفة المعاني، فأدت الحركة دورها البلاغي موحية بالحنو والرفق والرحمة.

أما في قوله تعالىٰ ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٢]، فاستعمال الكلمة(ٱلذِّلَّةُ) هنا بحركة الكسر؛ توحي بالمعنىٰ المراد الذي هو انكسار وإهانة، فثمَّة علاقة بين المعنىٰ في النفس، وتجليه في الحروف من خلال الحركات، فالسياق يدل علىٰ العذاب والعقاب، وفيه شدة وغلظة علىٰ خلاف السياق السابق، "فهم يعتصمون بحبل الله، والحبل العهد فأَعلم الله أنهم بعد عزٍّ كانوا فيه يبلغون في الذلة ما لا يبلغه أهل مكة، وكانوا ذوي منعة ويسار، فأعلم الله أنهم يذلون أبداً إلا أن يعزوا بالذمة التي يعطونها في الإسلام، وما بعد الاستثناءِ، ليس من الأول أنهم أذلاءُ إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه، وأعلم الله أنهم جعلتْ عقوبتهم هذه العقوبة الغليظة في الدنيا والآخرة؛ لتغليظ ما ارتكبوه من أفعال ذميمة"[(١)]، فكان لحركة الكسر دورا بلاغيا في إيصال هذه المعاني، فالحركة سواء أكانت مصاحبة لأحرف الكلمة، أم تقع علىٰ أواخر الكلم تعد جزءا من الوحدات الصوتية التي تشارك في الدلالة، والحركة علامة تستعمل في الكلمات؛ لتؤدي دورا متميزا في دلالة الكلمة.

(١)- معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج ١/ ٤٥٧، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

وقد أشار الرافعي إلىٰ العلاقة بين المعنىٰ في النفس وتجليه في الحروف والحركات بقوله: "ليس يخفىٰ أن مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنويع الصوت بما يخرجه فيه مدا أو غنة أو لينا أو شدة، وبما يهيئ له من الحركات المختلفة في اضطرابه وتتابعه علىٰ مقادير تناسب ما في النفس من أصولها...؛ ولأن تتابع الأصوات علىٰ نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة، هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خُلقت في نفس الإنسان"(١)، وهكذا نرىٰ عناية العلماء بدراسة أبنية الكلمات في تحديد أوصاف الكلمة من حيث حركاتها.

ومن الشواهد أيضا التي تدل على بلاغة حركة الصوت، وتبين تناسب الحركة مع المعنى: نطق (الهاء)في كلمة (الهُون، الهَون) (٢)، **بين (الضمة والفتحة):** حيث جاءت منكرة تارة(عَلَىٰ هُونٍ)،ومعرفة تارة أخرىٰ(عَذَابَ ٱلْهُونِ)، فحركة الصوت بالضم لها دلالة في موضعها لا يقوم بها غيرها في موضعها، كما في قوله ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ

(١)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ ١٤٩.

(٢)-المشقة والعذاب، قال المبرد الهُون: بضم الهاء لا أعرفه في الرفق، وإنما هو بفتح الهاء كما يقال: سر عليه هونا، أي: رفقا، والهُون لغة من هان يهون هونا بمعنىٰ: خف، وقيل: الهَون والهوان واحد وهو اللين والهون الرفق والسكينة والوقار(مقاييس اللغة، ولسان العرب (هون).

مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل:٥٩]، وكذلك حركة الصوت بالفتح لها سرها البلاغي في موضعها، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا) [الفرقان:٦٣].

السياق يدل على أن هذا الجذر اللغوي له وجهان:

الأول: تذلل الإنسان في نفسه لما لا يلحق به غضاضة، فيمدح به، كما في قوله: (يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا).

الثاني: أن يكون من جهة متسلط مستخف به، فيذم به، كما في قوله:(ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ).

وخلاصة الأمر أن الهَون: هو الوقار والتؤدة، أما الهُون: فهو الذلّ والعار.

فيرسم السياق صورة منكرة لعادات الجاهلية في قوله تعالىٰ:﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [النحل:٥٨] ، وجاء قوله: ﴿أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ، مسودا من الهم والحزن والضيق، وهو كظيم، يكظم غيظه وغمه، كأنها بلية، والأنثىٰ هبة الله له كالذكر، وما يملك أن يصور في الرحم أنثىٰ ولا ذكرا، وما يملك أن ينفخ فيه حياة، وما يملك أن يجعل من النطفة الساذجة إنسانا سويا، فكان الرجل منهم بين أمرين إن شاء أمسكها علىٰ هُون، وإن شاء أمر بإلقائها في الحفرة ورد التراب عليها وهي حية؛ لتموت.

ويبدو من خلال السياق القرآني أن حركة الصوت (الضمة) مناسبة للكلمة في نصها بالإضافة (عَذَابَ ٱلْهُونِ) ؛"لأن العقاب شرطه أن يكون مضرة مقرونة بالإهانة، كما أن الثواب شرطه أن يكون منفعة مقرونة بالتعظيم، والتركيب يدور علىٰ قلة المبالاة بالشيء"[1]، فناسبت الحركة هنا المعنىٰ ؛حيث إن السياق فيه من الشدة والصعوبة لهذا الموقف الذي فيه ادعاء علىٰ الله الولد والشريك له ودعوىٰ النبوة والوحي كاذبا، وهذا يتطلب حركة قوية (كالضمة) ؛ لتؤدي تلك الصورة من الشدة، وهو العذاب الذي يقترن به هوان ، يؤكد هذا "البيضاوي" بقوله: "يريدون العذاب المتضمن لشدة وإهانة، فإضافته إلىٰ الهون؛ لعراقته وتمكنه فيه"[2]، وهذا يدل علىٰ هذا العذاب الجامع بين الإيلام العظيم، والهوان الشديد، والخزي المديد بالنزع وسكرات الموت وما بعده في البرزخ – إلىٰ ما لا نهاية له.

ثم يأتي المشهد الثاني لحركة الصوت (الضمة) الذي فيه من الشدة والصعوبة ما فيه؛ إذ إن المشهد اللاإنساني الوارد في قضية استصغار وذل البنت التي لا ذنب لها أمر لا يرتضيه من كان في قلبه رحمة، فاختار صائت الضمة الثقيل؛ لتجانسها مع تلك المسألة الثقيلة علىٰ النفس، أما صائت

(١) – غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري ٣/ ١٢٢، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميه – بيروت، ط١ – ١٤١٦ هـ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ٢/ ١٧٣المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١ – ١٤١٨ هـ.

الفتحة، فناسب تلك الصفة العظيمة التي تشعر صاحبها بالطمأنينة والراحة والسكينة، وهي صفة التواضع في المشي، فهي لا تشكل معاناة في النطق: إنهم يمشون علىٰ الأرض مشية سهلة هينة، ليس فيها تكلف ولا تصنع، وليس فيها خيلاء، ولا تصعير خد، ولا تخلع أو ترهل، فالمشية ككل حركة تعبر عن الشخصية، وعما يستكن فيها من مشاعر، والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة، تخلع صفاتها هذه علىٰ مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة، فيها وقار وسكينة، وفيها جد وقوة، وليس معنىٰ (يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا) أنهم يمشون منكسي الرؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان؛ كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوىٰ، فارتبط صائت الفتحة بذلك اللفظ الذي يشعر باللين، فالمعنىٰ: "يشمون هينين في تؤدة وسكينة وحسن سمت"[1] ، فقد أضفت حركة الصوت (الفتحة) خفة ملموسة في اللفظ وجمالا في التصوير لا يخفىٰ علىٰ المتلقي.

ومن شواهد بلاغة حركة الصوت (بين الضمة والفتحة): نطق (الكاف) في كلمة (كُره، كَره) من قوله تعالىٰ: ﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمۡۖ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٥٣] ، وقوله تعالىٰ:﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف:١٥] ، حيث نجد أن القرآن الكريم استعمل

(١) الإعراب المحيط من تفسير البحر المحيط «هو إعراب القرآن مستلًّا من (البحر المحيط) لأبي حيان الغرناطي٧/ ٧٦.

هذا اللفظ بالفتح وبالضم، "استعمل بالفتح؛ للدلالة علىٰ المشقة والمعاناة النفسية فقط، واستعمل بالضم؛ للدلالة علىٰ المعاناة النفسية والجسدية"[1]؛ لذا ناسبت حركة الصوت (الفتحة) المعنىٰ في الحديث عن الإنفاق؛ لأنها مشقة نفسية مشوبة بالإكراه، وناسبت حركة الصوت (الضمة) المعنىٰ في الحديث عن الحمل والرضاعة؛ حيث توحي بضم المولود والحنو عليه والرفق واللين بالرغم من تلك المشقة الجسدية والنفسية في فترة الحمل والرضاعة، وما فيها من ثقل شديد ومشقة وتعب، فاختار أثقل الحركات للدلالة علىٰ تلك المعاني، يقول الطبري: (الكُره) بالضم: هو ما حمل الرجل نفسه عليه من غير إكراه أحد إياه عليه، (والكَره) بفتح (الكاف) هو ما حمله غيره، فأدخله عليه كرها"[2]، وهذا من التقابل الدلالي، والسياق والمقام أفصح عن هذا المعنىٰ، ففرق بين الإنفاق الاختياري والإنفاق الإجباري ، وهو الذي يؤلم صاحبه، وسمىٰ الإلزام إكراها؛ لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقا عليهم كالإكراه، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم؛ لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون علىٰ الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه، أو مكرهين من جهتهم[3].

(١)- المفردات (كره)، وينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن ٤٢.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري ٤/ ٢٩٧، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

(٣) ينظر: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ٢/ ٢٨٠.

وفي الآية الثانية(حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ) أي: بعد أن وضعه أبوه بمشاركتها في أحشائها، حملا(كُرْهًا) بثقل الحبل، وأمراضه، وأوصابه، وأعراضه(وَوَضَعَتْهُ) أي: بعد تمام مدة حمله(كُرْهًا)، فدل هذا – فضلا عن وجوب حق الأم- علىٰ أن الأمر في تكوينه لله وحده[1]، فهو أشد علىٰ النفس؛ لأن حركة الصوت(الضمة) قد أعطت بعدا نفسيا أقوىٰ؛ لأن الحمل والولادة فيهما مشقة نفسية وجسدية معا؛ مما يسهم ذلك في تهويل الموقف، ويحذر الأبناء من عقوق الوالدين، وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنىٰ والكلال(حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا)؛ لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه.

كذلك كان لحركة الصوت بالتنوين أثر كبير في بلاغة النظم والتركيب:

حيث أكد الفعل بالنون، ثم أبدلت تنوينا ، وجاء هذا في موضعين في القرآن الكريم، وهذا التنوين خاص بالأسماء-كما هو معلوم-، ولما جاء الفعل منونا كان ذلك لغرض بلاغي يدل علىٰ أن الإعجاز البياني يأتي في الحركة قبل الصوت، ومن ثمَّ الكلمة، ثم التركيب والنظم، وهذان الموضعان وردا في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف:٣٢] بتنوين الفعل (ذ) ألحقت به نون التوكيد الثقيلة، فامرأة العزيز تعلم جيدا أن في استطاعتها أن تسجنه، وقد سجنته بالفعل، فناسبت حركة

(١)- ينظر: نظم الدرر ٧/ ١٨٩.

الصوت بالتنوين المعنىٰ ،يقول أبو السعود: "بالنون المثقلة آثرت بناء الفعل للمفعول جريا علىٰ رسم الملوك- أَي: واللهِ ليعاقبنَّ علىٰ إبائه بالسجن والحبس-؛ أو إيهاما لسرعة ترتب ذلك علىٰ عدم امتثاله لأمرها، كأنه لا يدخل بينهما فعل فاعل"[1]، أما الفعل (وَلَيَكُونًا) ألحقت به نون التوكيد الخفيفة، فهي تعلم جيدا أنه ليس في استطاعتها أن تجعل يوسف من المذلولين المهانين، ثم تجيء دقة القرآن العظيم في إبدال نون التوكيد الخفيفة إلىٰ تنوين، ومن المعلوم أنه إذا جاءت الميم بعد التنوين أدغمت، فيصبح نطق الفعل (ليكون م)، فلا يكتمل للفعل نطقه، كذلك لن يكتمل لها ما أرادت، ولا تستطيع أن تجعل يوسف من المهانين، كذلك أصبح آخر حرف في الفعل هو الميم، ونعلم أن الميم تنطق بغلق الشفاه؛ إشارة إلىٰ غلق الأمر في وجهها، فلا يتحقق لها ما تمنته بأن يكون يوسف من المذلولين، بل رفع الله شأنه فوق رؤوس الأشهاد ، وأصبح عزيز مصر.

ومن هنا يمكن القول:

إن ثمة علاقة قوية بين الحروف والحركات والمعاني، والمهيمن علىٰ هذا هو السياق القرآني ؛ لتأدية المعنىٰ الأظهر، ويعد (ابن جني٣٩٢هـ) أول من تناول هذه الظاهرة من زوايا متعددة في منهج وصفي تطبيقي؛ إذ استوعب فكر أسلافه، كالخليل وسيبويه إلا أنها استوت وآتت ثمارها عنده، وقد بنىٰ عليه درسا متكاملا ليس من السهولة علينا تجاوزه أو إنكاره، وعقد له أبوابا

(١) - تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ ٤/ ٢٧٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

من كتابه تحت مسميات متنوعة منها: (إمساس الألفاظ في أشباه المعاني)، و(تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)، و(مساوقة الصيغ للمعاني)، (مضاهاة الألفاظ الحروف أصوات الأفعال التي عبر بها عنها)، وهو ما عرف عند المحدثين بـ (الأونوماتوبيا) **Onomatopoea**، وهي عملية تجسيد الصوت للمعنىٰ، فيكون الشكل بذاته دالا علىٰ مضمونه، فالحركة تدل علىٰ معنىٰ اللفظ المستعمل في السياق القرآني -كما سبق من أمثلة-، فمثلا كلمتي(الذُّل، والذِّل)، بالضم يدل علىٰ شغاف القلب وحنايا الوجدان ومخاطبة العاطفة الإنسانية، فتدل علىٰ الرحمة والتلطف كأن في حركة (الضم) تعبيرا عن الضم المعبر عنه بالحنان والحب والعطف، والسياق هو المهيمن علىٰ تلك المعاني، في حين ترىٰ أن حركة الكسر تدل علىٰ العذاب والعقاب، وكأن في حركة الكسر تعبيرا عن الانكسار والإهانة والخسران، فالحركات تصور المعاني في صورة مشاهد نفسية معينة تعبر عن الفرح والسرور تارة، وعن الشدة والعذاب تارة أخرىٰ.

❁❁❁❁❁

المبحث الثاني
بلاغة صوت الحرف ومناسبته للمعنى

توطئة:

القرآن الكريم مميز في تعميق العلاقة بين المعنىٰ في النفس وبين تجليّه في التشكيل الصوتي، حيث التناسق الصوتي[1] الناتج عن الانسجام، والتلاؤم بين الأصوات والكلمات سرعان ما تؤدي إلىٰ التأثير والانبهار، يقول الرافعي: "فلما قرئ عليهم القرآن، رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جمله، ألحانا لغوية رائعة، كأنها لائتلافها وتناسقها قطعة واحدة، قراءتها هي توقيعها"[2]، والآية القرآنية هي الوحدة الترتيلية التي يتألّف منها النظم القرآنيّ، صرحُ المعجزة البيانية الإلهية، وهي مكونة من أصوات الحروف العربية.

وعدد أصوات الحروف في العربية تسعة وعشرون صوتـًا، هي المادة الخام للغة، وهذه الوحدات الصوتية التسعة والعشرون، تؤدّي كلّ أنواع النشاط اللُّغويّ شعراً ونثراً وتخاطبـًا عاديـًا، وتتشكل؛ لتكوّن اللغة، إذ هي أصواتٌ يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم، كما يقول "ابن جنيّ"، ومن ثمَّ كان اختيار نوعية حروف كل كلمة وعدد حروفها هو قمة الإعجاز البياني، وليس المقصود نوعية خط الكتابة سواء أكان نسخا أم كوفيا أم غيره، فالآيات القرآنية تستعمل اللُّغة بكلّ طاقتها التأثيرية والتعبيرية والخطية(الرسم

---

(١)- يقصد به: التلاؤم الصوتي بين سمات الحروف في الكلمة، وتوالي الكلمات في النظم، ومعانيها، وغرضها الذي جاءت له.

(٢)-إعجاز القرآن والبلاغة النبوي، الرافعي ١/ ١٦٨.

القرآني) من أجل الوصول إلىٰ المعنىٰ، بمعنىٰ أن القرآن يختار عبارته لسبك تركيبها ووضوح معناها، واتجاهها إلىٰ التصريح أو التلميح، ولمناسبتها للغرض إيجازاً وإطنابًا، وحقيقة ومجازاً، ولحسن جرسها، ثم لانسجامها مع أخواتها وبيئتها من السياق، وتفضيلها بعض المفردات علىٰ بعض بحسب أهميتها، وهذا ما يخص النظم، ويتعلّق بحاسة الإدراك، وهكذا تتضافر كل هذه الطاقات؛ لتصل رسالة الله إلىٰ قلب المتلقي وسمعه وبصره، يقول الرافعي: "وإنما اطرد ذلك للقرآن من جهة تركيبه الذي انتظم أسباب الإعجاز من الصوت في الحرف، إلىٰ الحرف في الكلمة، إلىٰ الكلمة في الجملة، حتىٰ يكون الأمر مقدراً علىٰ تركيب الحواس النفسية في الإنسان تقديراً يطابق وضعَها وقواها وتصرفها...؛ لأنه تفصيل للحروف علىٰ النحو الذي يأخذه فيه تركيب الحياة، من تناسب الأجزاء في الدقيق والجليل، وقيام بعضها ببعض لا يغني منها شيء عن شيء في أصل التركيب وحكمته، ولا يرد غيرها مردها، ولا يأتلف ائتلافها، ولا يجري فيها إلىٰ نحو ذلك مما أجرىٰ الله عليه نشئ الخلق وبعث الحياة" [(١)].

من هذا المنطلق كان هذا المبحث الذي يعنىٰ ببيان تناسب الصوت للمعنىٰ؛ مما يبرز الأثر البلاغي للصوت في الدلالة علىٰ الأغراض؛ فيكون من أبرز وجوه الإعجاز القرآني.

فخاصية الشدة في صوت(الدال)، وخاصية التحرك والترجيع والتكرار في صوت(الراء)، وخاصية الانبثاق والنفاذ والصميمية في صوت(النون)،

(١)- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي ١/ ١٦٤.

وخاصية الاهتزاز والاضطراب والتشويه في صوت (الهاء)، وخاصية الصلابة والصقل والصفاء في صوت (الصاد)، وما إلىٰ ذلك من خصائص أصوات الحروف التي لا يستطيع القارئ أن يعيها، ولا أن يعيّ العلاقة بينها وبين معاني الألفاظ التي تشارك في تراكيبها، إلا بعد تأمل هادئ عميق ومعانة طويلة، يقول ابن جني: "سوقًا للحروف علىٰ سمت المعنىٰ المقصود والغرض المطلوب"(١).

ونستعين بالله في ذلك؛ لأن استنباط معاني اللفظة العربية من صدىٰ أصوات أحرفها في النفس يتطلب الملكة البلاغية (الذوقية)، وطول معاناة مع أصوات الحروف ومعانيها، ولا يدرك هذا إلا المتمرس في فنون العربية، ممن يتحلون برهافة الأحاسيس، وشفافية المشاعر، علىٰ كثير من الصبر الجميل، فصفات الأصوات أساس كبير يُضم إلىٰ مخرج الحرف في تأدية المعاني والأغراض؛ فكل ذلك يجعل لصوت الحرف أثرا بلاغيا في التناسب من خلال صفات الصوت للمعنىٰ، وتناسب زمن نطق الصوت لزمن الحدث، والتناسب في زيادة المبنىٰ(الصوت) لزيادة المعنىٰ، وفيما يأتي تفصيل لهذا، مع ذكر نماذج ؛ توضح أثر صوت الحرف من الناحية البلاغية؛ مساهمة في الوقوف علىٰ وجه من وجوه الإعجاز البياني.

❁❁❁❁❁

(١)- الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، ٢/ ١٦٤، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

أولا: تناسب صفات الصوت للمعنى:

عند تدبر كلمات القرآن الكريم نجد أن جميع كلماته منتقاة بدقة وعناية؛ وذلك لتأدية المعاني المرادة حيث توجد مناسبة قوية في اختيار الحروف داخل الكلمة؛ فيحدث ذلك تناسبا بين صفات الحرف والمعنىٰ، وتتمثل هذه الظاهرة العظيمة (مناسبة صفات الصوت للمعنىٰ) في اختيار الكلمات القوية المعبر عنها بألفاظ مكونة من أصوات تتسم بالقوة ؛ لحاجتها إلىٰ بذل مزيد من الجهد العضوي؛ لتعبر عن المعنىٰ القوي، وبذلك تأتي أصوات الحروف علىٰ سمت الأحداث، فيتناسب اختيار الصوت للمعنىٰ والحدث، وهذا وجه من الإعجاز في النظم القرآني، ومن المعلوم أن صفات الحروف لها أثر في المعنىٰ من القديم قبل نزول القرآن الكريم، ومما يدل علىٰ ذلك ما استشهد به البلاغيون بقول امرئ القيس:

غَدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إِلَىٰ الْعُلاَ .. تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مُثَنَّىٰ وَمُرْسَلِ (١)

حيث توسُّط صوت (الشين)، وهي مَهْموسة رخوة بين التاء، وهي مهموسة شديدة، والزاي وهي مجهورة، فظهر المعنىٰ جيدا لوصف الغدائر من خلال اختيار نوع الحروف، وعددها داخل الكلمة؛ مما يدل دلالة واضحة علىٰ أن الصوت بصفاته له أثره في المعنىٰ؛ حيث عبرت الأصوات ببراعة عن

(١)-هو من قول حُندج بن حجر الكنديأ المعروف بامرئ القيس في معلقته "من الطويل":

وفرع يزين المتن أسود فاحم .. أثيث كقنو النخلة المتعثكل

غدائره مستشزرات إلىٰ العلا .. تضل المداري في مثنىٰ ومرسل

مراد الشاعر ، يقول ابن جني: "ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر، والحكمة أعلىٰ وأصنع، وذلك أنهم قد يضيفون إلىٰ اختيار الحروف، وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّر عنها بها ترتيبها، أو تقديم ما يضاهي أول الحدث، أو تأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه"(١).

والشواهد القرآنية علىٰ ذلك كثيرة ، فمثلا صوت (الفاء) في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣] يتناسب مع الحدث، ومطابق في صورته تماما لنطقه، مع التعبير عن الغرض البلاغي بصورة رائعة، فقد دل الصوت علىٰ المعنىٰ بإيجاز، يقول "ابن عطية: "كأن الذي يريد أن يقول أضجر، أو أتقذر، أو أكره، أو نحو هذا يعبر إيجازا بهذه اللفظة، فتعطي معنىٰ الفعل المذكور، وجعل الله تعالىٰ هذه اللفظة مثالا لجميع ما يمكن أن يقابل به الآباء مما يكرهون، فلم ترد هذه في نفسها، وإنما هي مثال الأعظم منها والأقل، فهذا هو مفهوم الخطاب الذي المسكوت عنه حكمه حكم المذكور، والانتهار إظهار الغضب في الصوت واللفظ"(٢)، فنجد أن صوت(الفاء) وما يحمله من صفات، وطريقة نطق من إغلاق الفم عند الانتهاء به يساهم ببراعة شديدة في وصف الحدث، وفيه الدلالة علىٰ سرعة الامتثال لهما، فلا يصح لمسلم أن يلمح بأقل القليل من الرفض، أو الاستهانة بالوالدين، فأدىٰ هذا

(١)- الخصائص ٢/ ١٦٤.

(٢)- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي٣/ ٤٨٤، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ – ١٤٢٢ هـ، وينظر: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي ٦/ ٢١.

الصوت دوره البلاغي في تصوير المعنىٰ حالة النفور والتضجر، فالدال يوافق المدلول، يقول "ابن عاشور": (أف): اسم فعل مضارع بمعنىٰ أتضجر، وفيه صوت دال علىٰ التضجر، أقله الأذىٰ باللسان"(١)، فظهر جيدا أن صوت (الفاء) فيه من الدقة البيانية التي تفيد في أداء المعنىٰ وتصويره بما يتناسب مع السياق والموقف، بإيقاعه وجرسه، وإيماءاته.

ومن أبين أصوات الحروف التي تظهر الأثر البلاغي في تناسب صفات الحروف للمعاني، صوت (الكاف)، حيث استعمله القرآن الكريم بصورة أظهرت صفاته في تأدية المعاني والأغراض بطريقة جليلة واضحة، فاستخدم في الحروف المقطعة التي استهلت بها بعض سور القرآن، حيث تفتح هذه الحروف المقطعة السبيل لما يلقىٰ بعدها، وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود، ويسمىٰ براعة الاستهلال في الدرس البلاغي، فهي بمثابة الإثارة الذهنية للمتلقي، كأدوات تنبيه كـ (ألا، وأما)، لكن لم يستعملها القرآن في مفتتح السور؛ لأنها من الألفاظ التي يتعارف عليها الناس في كلامهم، والقرآن معجز ببيانه ولا يشبهه كلام، فناسب أن يؤتىٰ فيه بألفاظ تنبيه لم تُعهد؛ لتكون أبلغ في قرع الأسماع(٢)، وأذكر نموذجا لهذه الحروف المقطعة بما افتتحت به سورة مريم، حيث بدأت بصوت (الكاف) في قوله تعالىٰ: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ ، هذه الأصوات(كاف، ها، يا، عين، صاد) التي وردت في المطلع تتصف بصفات الرخاوة واللين والهمس؛ مما يناسب الانفعالات والمشاعر التي صاحبت القصص، فتتلاءم مع غرض السورة،

(١)- التحرير والتنوير١٥/ ٧٠.

(٢)- ينظر: إعجاز القرآن ، الباقلاني/ ٤٤.

حيث ظاهرة الرحمة وشيوعها في هذه السورة خاصة، وهي أصوات انفعالية تعبر عن التوجع والدهشة وما إلىٰ ذلك من التعبيرات الوجدانية، التي تجلت مظاهرها الصوتية في أجواء الإشفاق والحنو، وهي أبعاد صوتية ونفسية؛ لما في هذه الحروف من إشباع بالمد، وبراعة استهلال تتهيأ معها نفسية القارئ لما يلقىٰ عليه، إضافة لما تحمل من دلالات إيحائية في كونها خروجا عن المألوف، والمجيء بما ليس مألوفا من استعمالات أساليب العرب يثير الدهشة، ويحقق عنصر المفاجأة التي تحفز المتلقي للانتباه والتأهب لما يتضمنه الخطاب من توجيه، إضافة إلىٰ كون هذا برهانا ساطعا علىٰ أن القرآن الكريم منتظم من الحروف التي ينظم بها العرب كلامهم، ممثلة كل الظواهر الصوتية الموجودة في اللغة العربية[1]، فكان لمناسبة السورة بما قبلها أثر بلاغي في ابتداء السورة الكريمة بالحروف المقطعة؛ لتدل علىٰ دقة وبراعة النظم القرآني المعجز، يقول البقاعي: "لما كانت هذه السورة تالية للسورة الواصفة للكتاب - الذي به نعمة الإبقاء الأول - بالاستقامة البالغة، افتتحها بالأحرف المقطعة، كما افتتح السورة التي تلي أم الكتاب، الداعيةَ إلىٰ الصراط المستقيم، الواصفةَ الكتابَ بالهدىٰ الضامن للاستقامة التي تلي واصفته، والتي تلي الأنعام المشيرة إلىٰ نعمة الإيجاد الأول، فقال: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ "[2].

(١)- ينظر: السابق/ ٤٤.

(٢)-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور١٢/ ١٦٧.

ومن هنا ظهر جليا التناسب بين صفات الصوت والمعنىٰ، حيث التلاؤم بين الحروف المقطعة في مطلع السورة، وما فيها من مد الصوت، واطراد فاصلة السورة علىٰ حروف المد أو الترنيم؛ مما يظهر التناسق الصوتي بين مطلع السورة ومقصدها وبناء فواصلها، فالجو الخاص الذي يظلل السورة، ويشيع فيها، ويتخلل موضوعاتها هو جو الرحمة والرضىٰ والرعاية، يقول البقاعي: "وهي خمسة أحرف علىٰ عددها مع تلك السورة، وهي جامعة النعم، وواصفة الكتاب، وذات النعمة الأولىٰ، وذات النعمة الثانية"(١).

كذلك كان لصوت حرف(الكاف) في قوله تعالىٰ:﴿هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزًا﴾ [مريم:٩٨]، أثر بلاغي يتناسب مع المقام، وهو من صفات الهمس (فحثه شخص سكت) ، ففيه تصوير للمعنىٰ(٢) ، وهو الصوت الخفي بلغة قريش، يقول البقاعي: "أي صوتًا خفيًا فضلاً عن أن يكون جليًا " (٣)؛ فظهر بدقة عالية بلاغة هذا الصوت داخل الكلمة في الدلالة علىٰ المعنىٰ، وهذا من التناسب المكتسب من صفات الحرف، ويبدو هذا التناسب البلاغي من خلال الارتباط بين افتتاح السورة واختيار هذه الكلمة المشتملة علىٰ هذا الصوت دون غيرها؛ مما يدل علىٰ دقة وبراعة النظم ، حيث ذكر هذا الصوت في بداية السورة المفتتحة بصوت (الكاف) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم:١]، وهذه الأحرف المتقطعة التي تبدأ بها بعض

(١)-نظم الدرر في تناسب الآيات والسور١٢/ ١٦٧.

(٢)-الرِّكْزُ: الصّوت الخفيّ(المفردات في غريب القرآن/ ٣٦٤).

(٣)- نظم الدرر، البقاعي١٢/ ٢٥٤.

السور، ما هي إلا نماذج من الحروف التي يتألف منها هذا القرآن، فيجيء نسقا جديدا لا يستطيعه البشر مع أنهم يملكون الحروف ويعرفون الكلمات، لكنهم يعجزون أن يصوغوا منها مثل ما تصوغه القدرة المبدعة لهذا القرآن، وناسب ذلك الخفاء في (رِكِزًا) ما جاء بعده في بداية القصة بمشهد الدعاء، دعاء زكريا لربه في ضراعة وفي خفية ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم:٣]، كل هذا من الدقة القرآنية في تناسب المعاني للألفاظ باختيار أصوات بعينها؛ ليصور هذا المشهد الذي يبدؤك بالرجة المدمرة، ثم يغمرك بالصمت العميق،(هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ) انظر، وتلفت :﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨]، تسمع، وأنصت، ألا إنه السكون العميق والصمت الرهيب، وما من أحد إلا الواحد الحي الذي لا يموت.

وفي نفس السورة نجد صوت (الهمزة مع الزاي) في لفظ (الأز)[1] يصور المعنىٰ ويؤدي الغرض دون غيره من الأصوات الأخرىٰ، وهو أشد أنواع الهز، عند إرسال الشياطين علىٰ الكافرين في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم:٨٣]، وأما مع مريم وقد جاءها المخاض، فقد عبر بالهز لملاءمته لحالها، فقال سبحانه: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم:٢٥] ،كل هذا يدل علىٰ مدىٰ التناسب في اختيار

(١)- أي: ترجعهم إرجاع القدر إذا أزّت، أي: اشتدّ غليانها (المفردات في غريب القرآن/ ٧٤) .

الصوت الذي يتلاءم مع الحدث دون غيره؛ مما يدل دلالة صريحة علىٰ أن اللبنة الأولىٰ في الإعجاز البياني أساسها الحرف.

ومن الشواهد البارزة -أيضا-لهذا الصوت (الكاف) قوله تعالىٰ:﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ [النمل:٩٠] (١)، حيث أعطىٰ صوت(الكاف) داخل الكلمة (فَكُبَّتۡ) معنىٰ بلاغيا يتناسب مع المعنىٰ والحدث؛ "ليدل علىٰ أنهم قذفوا فيها علىٰ وجوههم غير مبال بهم، فيدفعون دفعا من الوراء إلىٰ الأمام؛ إهانة لهم وتحقيرا لشأنهم، كما تطرح الزبالة تكفأ كفئا؛ لأن من يطرحها لا ينظر إليها، وعبر بالوجه عن سائر الجسد لهذا المعنىٰ؛ لأن الوجه أول ما يواجه النار"(٢)، والغرض من هذه الجملة التنبيه علىٰ أن الشيطان قرينهم، فحملهم علىٰ ذلك، وزينه لهم، وجوز أن يكون وعيدا لهم بأن يقرن بهم الشيطان يوم القيامة في النار، فيتلاعنان ويتباغضان(٣)، فصفات حرف (الكاف) دلت علىٰ المعنىٰ البلاغي الذي يتلاءم مع الحدث، حيث إن الفعل (فَكُبَّتۡ) يصوّر بجرسه حركة الكبّ العنيفة علىٰ الوجوه، من

(١)-الْكَبُّ: إسقاط الشيء علىٰ وجهه، والإِكْبَابُ: جعل وجهه مَكْبُوبًا علىٰ العمل، قال تعالىٰ: (﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ﴾ [المُلك:٢٢]، والكَبْكَبَةُ: تدهور الشيء في هوّة، قال:﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء:٩٤] (ينظر: المفردات في غريب القرآن/ ٦٩٥).

(٢)- بيان المعاني، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني ٢/ ٣٤٩، مطبعة الترقي – دمشق، ط١، ١٣٨٢ هـ – ١٩٦٥م.

(٣)- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي،٣/ ٣٠ المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥ ه..

شدة الهول والفزع، كما أن النار تلفح هذه الوجوه دائما، كما تلفح الظهور، دلالة علىٰ شمولها لهم، وإحاطتها بهم، وهم يحاولون ردّها، بدون فائدة [1]، "ونُزّل الفعل لتحقّقه منزلة الواقع"[2]، وهذا من التناسق الصوتي الداخلي للنص القرآني، حسب ما يقتضيه المعنىٰ، وتلاؤم ذلك كله مع الجو العام الذي يطلق فيه هذا الإيقاع الصوتي ووظيفته التي يؤديها في كل سياق، فالكاف من الحروف الشديدة (أجد قط بكت)؛ لذا ناسبت الحدث الذي وردت فيه.

كذلك كان اختيار بعض الأصوات دون غيرها سببا في إحداث التناسب بين اللفظ والمعنىٰ، ومن ذلك كلمة(دعًّا) في قوله تعالىٰ: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ [الطور:١٣] ، نجد صوت (العين) يصور هذا المشهد تصويرا دقيقا، وكأنها عين حقيقية تصف ما تشاهده بكل التفاصيل، إن لفظ (الدع) هو لدفع في الظهور بعنف، وهذا الدفع في كثير من الأحيان يجعل المدفوع يخرج صوتا غير إرادي فيه عين ساكنة...، وهو في جرسه أقرب ما يكون إلىٰ جرس الدع ، ولما كانت لفظة (الدع) أقوىٰ من (الدفع) جرسا ومعنىٰ آثر القرآن اختيارها؛ إذ تتضح مزية انتقاء الألفاظ علىٰ بدائلها التي تشترك معها في حقل دلالي واحد؛ لتأدية الغرض ببراعة وإعجاز.

---

(١)-وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، ط١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

(٢)-بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادي٤/ ١٥٦،المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

وكذلك أدىٰ صوت(الشين) دوره الإعجازي في سياقه، وهو صوت لثوي حنكي رخو مهموس، وهو للتفشي؛ لأن الهواء يتفشىٰ عند ارتفاع طرف اللسان إلىٰ مؤخر اللثة ومقدم الحنك الأعلىٰ عند نطقه، ووظيفة هذا الحرف من الوجهة البلاغية؛ تصوير مشهد تفشي الحدث واتساع مداه، فعند إمعان النظر في قوله تعالىٰ:﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]، نجد أن صوت الشين في لفظ(مشاء) يصور انتشار النميمة، مع زيادة قوة تفشي هذه الصفة في تضعيف العين، ومد الصوت بحركة الفتح الطويلة، ومثله ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم:٤]، فصوت الشين هنا له دوره في المعنىٰ؛ حيث يصور ببراعة هذا الانتشار الواضح المحسوس.

ومن الشعر العربي ما يدل علىٰ هذا الاستخدام في اختيار الصوت المناسب للمعنىٰ، وهذا من الدقة البلاغية في أداء المعاني والأغراض، يقول الأعشىٰ:

وقد دخلت إلىٰ الحانوت يتبعني :: شاو مشل شلول شلشل شول[1]

(١)-الحانوت: بيت الخمَّار، ويذكر ويؤنث، والشاوي: الذي يشوىٰ، والمشل: الجيد السَّوق للإبل، وهو الخفيف، وكذلك الشّلُولُ، والشُّلشُل مثل: القلقل، وهو المتحرك، وشول، وهو الذي يحمي الشيء، يقال: شُلْتُ به وأشلته، وقيل: هو من قولهم (فلان يشُول في حاجته) أي يعني بها ويتحرك فيها، ومن روىٰ شُولُ فهو بمعناه إلا إنه للتكثير(شرح القصائد العشر للإمام التبريزي(ت٥٠٢ه)، وينظر: المعجم الوسيط ، ومختار الصحاح).

فلعل الأعشىٰ اختار هذا الصوت الذي يتناسب مع المعنىٰ؛ ليبرز ما لريح الشواء من سرعة في الانتشار والاتساع شأنه في ذلك شأن صوت (الشين) الذي استند إليه الشاعر؛ لتأدية غرضه من خلال صفات هذا الحرف.

واختار المتنبي صوت (القاف) في التعبير عن صورة الهم الذي قلقل قلبه قائلا:

فقلقلت بالهم الذي قلقل الحشا :: قلاقل عيس كلهن قلاقل[1]

كذلك صوت (الكاف) وما يوحيه من خلال وظيفته، حيث هو صوت حنكي شديد مهموس، يدل علىٰ تجسيد أحداث توصف بالشدة والعنف، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات:٢٩] ، وقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر:٢١]، فالصك، والدك أحداث عنيفة، وأصواتها تحاكي أحداثها محاكاة لأصوات طبيعة فيها، حيث إن الصك صوت ناتج عن لطم الخد، وذلك صوت للاصطدام بالأرض، ويبدوا تفاوت قوة الاصطدام بين اللفظين انطلاقا من صوت الدال لجهره في لفظ (الدك)، وضعف صوت الصاد في لفظ (الصك) بمجاورته هنا لصوت الكاف المشددة.

ومن ذلك كلمة (الصاخة) في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس:٣٣]، نجد أن صوت الصاد ذو جرس شديد، يتناسب مع المقام والسياق، كأنه يكاد يخرق صماخ الأذن، وهو يشق الهواء شقا، حتىٰ يصل إلىٰ الأذن صاخبا ملحا، وهو يمهد بهذا الصوت الشديد العنيف للمشهد

(١)- ديوان المتنبي، تحقيق د/ درويش الجويدي، المكتبة العصرية، بيروت.

الذي يليه، وهو مشهد الإنسان عند فراره من أقرب الناس إليه؛ إذ يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ومَنْ هؤلاء؟!! هم الذين تربطهم به روابط لا تنفصم، ولكن الصاخة تقطع تلك الروابط وتمزقها تمزيقا، فكأن صوت حرف الصاد يوحي بكل هذه المعاني، فضلا عن تصوير المشهد العظيم، وهذا من الإعجاز في الحرف، الذي ينفرد به القرآن الكريم.

ومن الأصوات البارزة في تأدية المعاني تلك التي جاءت لملاءمة الحدث في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر:٣١][(١)]، نجد أن أصوات الحروف علىٰ سمت الأحداث، فأصوات (الهاء، والشين، والظاء، والراء) مناسبة في أداء الحدث، فصورة الهشيم المحتظر تُعبّر عن معنىٰ إفنائهم وإهلاكهم، ولكن الصورة لا تعبر عن المعنىٰ فقط، وإنما تعبّر أيضا عن الإهانة والتحقير لهم، عقابا علىٰ استكبارهم علىٰ دعوة الله، ومخالفتهم أمره، يقول الراغب: "وصورة الهشيم تدلّ علىٰ إفنائهم، ولكنّ هذا الهشيم، هو هشيم الحظيرة الذي تدوسه الدوابّ وتروث عليه؛ تحقيرا لهم، وازدراء بهم"[(٢)]، حيث شبههم بالشجر اليابس، الذي يتخذه من يعمل الحظيرة لأجلها، أو كالحشيش اليابس الذي يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته في الشتاء، فصوت الحرف(الشين) بما يحمل من صفات (لثوي حنكي رخو مهموس، ويسمىٰ بصوت التفشي)؛ يصور هذا المشهد،

(١)-الْهَشْمُ: كسر الشيء الرّخو كالنّبات، والحظر: الحاء والظاء والراء أصل واحد يدل علىٰ المنع. يقال: حظرت الشيء أحظره حظرا، فأنا حاظر والشيء محظور. (ينظر: معجم مقاييس اللغة٢/ ٨١).

(٢)- ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن/ ١٤٦.

وكأنه مشاهد أمام العين، يقول "ابن عاشور": " فالمشبه به هو الهشيم المجموع في الأرض قبل أن يسيج؛ ولذلك قال: كهشيم المحتظر ولم يقل: كهشيم الحظيرة؛ لأن المقصود بالتشبيه حالته قبل أن يرصف ويصفف، وقبل أن تتخذ منه الحظيرة" [1].

وهذا ما أضفته القيمة البلاغية للتشبيه، فمن خصائص التشبيه القرآني، أنه ليس عنصرا إضافيّا في الجملة، ولكنه جزء أساسي لا يتم المعنىٰ بدونه، وإذا سقط من الجملة انهار المعنىٰ من أساسه، فعمله في الجملة أنه يعطي الفكرة في صورة واضحة مؤثرة، فهو لا يمضي إلىٰ التشبيه كأنما هو عمل مقصود لذاته، ولكن التشبيه يأتي ضرورة في الجملة، يتطلبه المعنىٰ ليصبح واضحا قويّا، فمادة (هشم) تدور حول تكسر المادة وصيرورتها أجزاء – وهذا كافٍ في هلاكهم – ولكنه يصف الهشيم بأنه (هشيم المحتظر)، وهذا يفيدنا معنيين: أن الكوارث حلت بهم جميعًا، فتساقطوا بعضهم فوق بعض، هكذا يكون الهشيم في الحظيرة، وأنهم أصبحوا وقوداً للنار تسرع فيه إذا أشعلت؛ لأن (هشيم المحتظر) أكثر جفافًا من الهشيم الأخضر[2]. فصوت الشين أدىٰ دوره ببراعة في الدلالة علىٰ المعنىٰ.

ونجد أن فاصلة السورة واحدة تتحد نهاياتها بصوت (الراء) مع التزام تحريك ما قبلها، وذلك هو نهج فواصل السورة كلها، وقد أشاع هذا النسق

(١)– التحرير والتنوير٢٧/ ٢٠٣.

(٢)–ينظر: السابق ٢/ ٢٣٠.

الشاجي نوعًا من الموسيقىٰ الصاخبة العنيفة التي تتلاءم مع جو الإنذار أيما تناسب، والسورة فوق كل هذا مكية النزول والموضوع(١).

وتأمل صوت التاء مع الشين، في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير ١-١٤] ، فالتاء صوت أسناني لثوي مهموس، وقد يصحبها الجهر إذا وليها صوت مجهور، فنجد أثر صوت (التاء) بصفاته في تشكيل وتأدية المعنىٰ بصورة بلاغية مراعية السياق والمقام ،حيث الآيات تتحدث عن أهوال يوم القيامة، وهي أحداث عظيمة من حالات السماء والأرض والكواكب والجبال والبحار والوحوش والنفوس والجحيم والجنة، ويتبين القارئ أن ثمّة علاقة بين حال الكائنات يوم القيامة والأصوات الموظفة لتصوير تلك الحالة، فصوت (التاء) يدل علىٰ الجو العام لمضمون الآيات؛ لما فيه همس لا يكاد يفهم، فالناس يومئذ في هول عظيم، يهمسون إلىٰ بعضهم باحثين عن الإجابة، لكن لا مجيب.

(١)-ينظر: خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولىٰ)، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني١/ ٣٢٨، مكتبة وهبة،ط١، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م.

والشواهد على ذلك كثيرة، وأختم هذا المبحث بصوت (الهاء) في دلالته بصفاته علىٰ المعنىٰ، وهو صوت حنجري احتكاكي مهموس(١)، وبرز أثره البلاغي في المعنىٰ، ومن ذلك تكرر هذا الصوت في الفواصل القرآنية، كما في قوله تعالىٰ" ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا...﴾ [الشمس١-٥]،فقد تكرر صوت (الهاء) في الفواصل خمس عشرة مرة، وهو عدد الآيات، وعند التأمل في سياق الآيات نجد المعاني تعبر عن الأحداث ومكنون النفس البشرية بطريقة بيانية تشير إلىٰ الأثر البلاغي في تأدية الأغراض والمعاني ؛ حيث توحي تارة بالتفجع والتحسر، وتارة تومئ بالارتياح والطمأنينة، حسب السياق والمقام.

فنجد هذه الحالة النفسية في فواصل الآيات التي تنتهي بصوت (الهاء)، سواء أكان أصلها تاء، أو هاء أصلية وذلك في مثل سورة الحاقة: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ... ﴾ [الحاقة١- ٦] ، فقد كان للفاصلة، دلالة صوتية مميزة في إبراز حالة اليأس والشقاء التي يعاني منها الكافرون في جهنم، وهم يعذبون، ويقول أحدهم عندما يلاقي صحائفه: ﴿ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة:٢٥]". أما الصورة الأخرىٰ المعاكسة لهذه الصورة، وهي حال المؤمنين المطمئنة قلوبهم، وهم الذين أوتوا كتابهم بيمينهم: "﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠

(١)- علم الأصوات ، كمال بشر/ ٣٠٥ ، دار غريب للطباعة، القاهرة.

فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ [الحاقة٢٠-٢٤] ؛ فقد أسهم صوت الهاء المهموس في إبراز حال الفئتين.

ويبدو من خلال تلك الدراسة أن أساس اختيار الفواصل القرآنية، يتأتىٰ بحسب المعنىٰ، لا لغرض شكلي، أو لمراعاة الفاصلة، فاختيار الفواصل يحقق غايات كثيرة دلالية ونحوية وبلاغية، فالفواصل- إذن- تبع للمعاني، وهذه أبرز سمة أسلوبية اختص بها القرآن الكريم؛ فلم ينتق الألفاظ أو التراكيب التي تعد من اللغة النموذجية، أو الأساليب المشهورة، وإنما كان ينتقي الأصوات والأساليب التي تخدم المعاني.

❁❁❁❁❁

ثانيا: تناسب زمن نطق الصوت لزمن الحدث :

قد تكون مناسبة زمن نطق الصوت لزمن الحدث؛ سببا في إحداث التناسب بين اللفظ والمعنىٰ من قِبَلِ الزمن الذي يستغرقه النطق بالصوت، ومناسبته للزمن الذي يحتاج إليه لإحداث الحدث، فالحدث الذي يحتاج إلىٰ زمن أطول يقابل بصوت يستغرق نطقه زمنا أطول، والحدث الذي يحتاج إلىٰ زمن قصير يقابل بصوت يستغرق نطقه زمنا قصيرا، ومن ثمَّ كان اختيار الأصوات (الحروف) سببا في التناسب، وكذلك تطويل المقاطع في بعض المفردات القرآنية، أو كثرة حروفها، تكون مقصودة أحيانا لاستيفاء المعنىٰ المصوّر، وذلك باستنفاد ما في الكلمة من طاقات تعبيرية وتصويرية دالّة علىٰ المعنىٰ، والتطويل في المفردة الواحدة، يزيد من زمن عرض الصورة أمام العين، وبناء عليه يزيد من تأثيرها في النفوس.

فطول الكلمة مقطعا وحروفا، يوسّع من دائرة الصورة مكانا وزمانا، والدراسات الحديثة الدقيقة تستكشف هذا في تصوير المعاني وتناغمها من خلال اللفظ والموسيقىٰ، يقول "جان برتيليمي" في هذا المعنىٰ: «وقد عرّف "أو غسطين" الموسيقىٰ بأنها: علم الحركة، والحركة تضمّ الزمن إن هي ضمّت فكرة العدد»(١)، ويقول أيضا: «فالموسيقىٰ فن تجميع النغمات بطريقة تبعث السرور إلىٰ الأذن»(٢). فالطول والقصر يرتبط بالمعنىٰ المراد تصويره، أو بالحالة، أو الموقف، كقوله تعالىٰ: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٧]، وقوله: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود:٢٨] ، وقوله أيضا: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحِجر:٢٢]، وأيضا قوله:﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٥٥] ، وقوله أيضا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم:٤٤].

وقد قام الرافعي بتحليل هذه الظاهرة في المفردات القرآنية تحليلا صوتيا ضمن نظام العلاقات بين الحروف مخرجا وصفة وحركة، فكلمة (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) مؤلفة من عشرة حروف، لكنّها رشيقة عذبة، وقد جاءت عذوبتها، من تنوع مخارج الحروف، ومن نظم حركاتها، فإنها بذلك صارت في النطق كأنّها أربع كلمات إذ تنطق علىٰ أربعة مقاطع، وكلمة (فَسَيَكْفِيكَهُمُ)

(١)-بحث في علم الجمال، جان برتليمي/ ٣٥٣، ترجمة: الدكتور/ أنور عبدالعزيز، مراجعة الدكتور: نظمي لوقا، دار نهضة مصر.

(٢)- السابق٣٥٣.

مؤلّفة من تسعة أحرف، وهي ثلاثة مقاطع، وتكرّرت فيها (الياء والكاف)، وتوسّط بين الكافين هذا المدّ الذي أظهر سرّ الفصاحة في الكلمة كلّها، وبهذا اكتسبت هذه الألفاظ الطويلة في بنائها حلاوة وعذوبة وخفّة، فقد أدت وظيفتها البلاغية والإعجازية في موضعها؛ حيث تصوير المعنىٰ المراد من خلال السياق والمقام(١).

كما أن فك التضعيف يدل علىٰ مضاعفة الفعل وطول زمنه واستمراره، كما في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١] حيث ضعف الفعل(تُحِبُّونَ) وفك التضعيف في الفعل(يُحْبِبْكُمُ) المضارع المجزوم في جواب الطلب؛ لتدل علىٰ مضاعفة حب الله لعباده الذين يحبونه ويتبعون رسوله وطول مدىٰ هذا الحب واستمراره، ثم لاحظ الدقة العجيبة، في تفخيم الباء في (تُحِبُّونَ)؛ التي تدل علىٰ تفخيم الحب، وتفخيم المحبوب سبحانه وتعالىٰ، ثم انظر إلىٰ (يُحْبِبْكُمُ) بترقيق الباء التي تدل علىٰ تلطف الله سبحانه وتعالىٰ بعباده ورقته لهم؛ مما يدل علىٰ أهمية الفك والإدغام من خلال الأصوات، مما يبرز دورها وأثرها البلاغي في الإعجاز البياني.

كذلك كان من باب التناسب تضعيف صوت الحرف لوصف الحدث، فالحدث الذي يحتاج إلىٰ زمن أطول يقابل بصوت يستغرق نطقه زمنا أطول فمثلا كلمة: (اثَّاقَلْتُمْ) في قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا

(١)- للمزيد ينظر: إعجاز القرآن: الرافعي/ ٢٢٩.

قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [التوبة:٣٨] ، تأمل كيف ترسم هذه الكلمة بمخارجها، وأصواتها، وحركاتها تلك الصورة البيانية المعجزة؟ التي لا يعطينا المعنىٰ المعجمي براعة الصورة بهذا الوضوح، فنجد حرف (الثاء) المشدد الذي يجعل اللسان مترددا في النطق؛ يرسم لك ويدلك علىٰ المتثاقل في القيام، ثم يأتي بعد ذلك حرف الألف؛ ليرسم حالة هذا المتثاقل في محاولته القيام، ثم يأتي بعد ذلك حرف القاف الذي يخرج من آخر اللسان، وصوت اللام الذي يخرج من منتصف اللسان؛ ليرسم في الذهن صورة هذا المتثاقل وقد رجع إلىٰ الخلف لم يتقدم إلىٰ الأمام، ثم يأتي آخر مقطع في الكلمة (تم)؛ ليعطي دلالة عظيمة بأن شيئا ثقيلا ارتطم بالأرض، فأحدث رجَّة عظيمة، وكأن هذا المتثاقل ارتطم بالأرض ورجع إليها، فلم يستطع القيام.

وفي قوله: (يَصَّدَّقُواْ)، من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ ﴾ [النساء:٩٢]، شدد حرفين متتاليين(الصاد، الدال)، والشدة من ثقلها تحتاج لمجهود ومعاناة في النطق، هذه المعاناة تدلك علىٰ تلك المعاناة التي يتصدّق بها هؤلاء علىٰ قاتل أخيهم، فلا يستطيع أن يتصدق عليه ويسامحه، وتشديد الحرفين فيه وصف عظيم، وتعبير دقيق عن هذه المعاناة ، ثم تأمل تشديد (الدال)، ودقق في ملامح الوجه عند النطق بهذا الحرف مشددا، تجده يرسم مدىٰ صورة الغيظ والغضب الذي يشعر به أهل القتيل، ورغم هذا الغضب الشديد ، فإنهم يتصدقون عليهم بالعفو.

ومن أبرز الظواهر التي تؤكد تناسب زمن الصوت لزمن الحدث، تناسب الصيغة لزمن الحدث بالإدغام أو الفك: وظاهرة الإدغام من الظواهر الصوتية التي وظفها القرآن لتأدية معان وأغراض جليلة، فقد يؤتىٰ بالإدغام في سياق لغوي معين لغرض بلاغي وجمالي، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٤] ، فنجد القرآن الكريم يجنح إلىٰ بعض لغات العرب رغم قلتها، والإدغام هنا علىٰ لغة تميم، وقرأ طلحة بن مصرف بن الميقع:" وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ "(١)، بإظهار التضعيف في القاف، كالتي وردت في الأنفال ، وهي لغة أهل الحجاز، وقراءة جمهور القراء.

وعلل (ابن الجزري المتوفىٰ : ٨٣٣ هـ) ؛ لذلك بعلة بلاغية محضة، فقال: " قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:١٣]، فِي الْأَنْفَالِ كَيْفَ أُجْمِعَ عَلَىٰ فَكِّ إِدْغَامِهِ؟ وَقَوْلِهِ: (﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر:٤]، فِي الْحَشْرِ، كَيْفَ أُجْمِعَ عَلَىٰ إِدْغَامِهِ؟؛ ذَلِكَ لِتَقَارُبِ الْمَقَامَيْنِ مِنَ الْإِطْنَابِ وَالْإِيجَازِ"(٢)، فجعل علة الفك والإدغام مراعاة السياق والمقام، بالربط مع السورة التي وردت فيها، فطول السورة يقتضي الإطناب، وزيادة الحرف،

(١)– النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، ٢/ ٢٥٥المحقق/ علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرىٰ [تصوير دار الكتاب العلمية] .

(٢)– ينظر: السابق٢/ ٢٥٥.

كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [البقرة:٢١٧] ، فقد اتفقوا علىٰ حرف البقرة، وهو أنه بدالين؛ لإجماع المصاحف عليه كذلك، وهذا لمناسبة طول السورة (البقرة) فضلا عن السياق والمقام، فعند التأمل في الإعجاز الصوتي للحرف نجد الغرض البلاغي هو أنه لما ذكر لفظ الجلالة وحده كان الإدغام، ولما جاء ذكر الرسول-ﷺ- معه أظهر الصوتان؛ ذلك ليعلم القارئ أن من يشاق الله، فإنه سيعاقبه عقابا شديدا؛ مما يدل علىٰ أن توظيف الحرف في القرآن يوضح المعاني والأغراض.

وهذا من اللطائف القرآنية المحكمة، وهو ما أشار إليه الرازي بقوله: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط" [(١)]، وهو من أساس تلك الدراسة التي تسعىٰ إلىٰ التماس أوجه التلاؤم الصوتي في النص القرآني وصولا إلىٰ بيان أن النص القرآني بناء محكم وتركيب قائم علىٰ أساس علاقات رابطة وقواعد راسخة تؤكد هذا الفهم وتدفع إلىٰ إثبات حقيقة بنائية النص القرآني صوتيا وبلاغيا.

ومن الملاحظ أن الإدغام في مثل هذا النوع لفظي وخطي، وقد يكون الإدغام مقتصرا علىٰ النطق دون الخط كما في قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَهِدِّيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [يونس:٣٥])، فالإعجاز الصوتي لحرف (الدال) في قوله: "يَهِدِّيٓ " التي

(١)- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري ١٠/ ١٤٠، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ.

أصلها "يهتدي"، ولم ترد إلا في هذا الموضع في القرآن الكريم، وغرضها البلاغي من الإتيان بهذه البنية الصوتية، تلك النغمة وهذه النبرة الدالة علىٰ التثاقل الذي يبدو علىٰ المتخاذلين الذين لا يُهدوا، ولا يكادون يهتدوا، بل الهداية مع التراخي الذي اتسموا به لا تتحقق في كل حال من أحوال حياتهم.

ومثل هذا النوع كثير كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ﴾ [الكهف:١٧]، وقد قرأها بالإدغام(تزور) حمزة وعاصم والكسائي، وقرأ ابن عامر (تَّزَٰوَرُ) مثل تحمر، وأصلها تتزاور، أي: تتشقق، وقرأها بالإدغام أربعة من القراء(١)، وقوله أيضا: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس:٦] أصلها (تتصدىٰ)، وهي قراءة عدد من القراء السبعة(٢).

ومن الظواهر القرآنية التي تبرز أثر الصوت وتناسبه مع المعنىٰ (تكرارية الصوت الواحد أو الصوت المفرد)، حيث يتم فيها تكرار صوت معين من شأنه أن يعطي جرسا صوتيا فريدا إلىٰ جانب الأصوات السابقة، أو اللاحقة المكونة للفظ، وقد يتكرر علىٰ مستوىٰ المفردة الواحدة، كما يمكن أن يتكرر علىٰ مستوىٰ الألفاظ المتجاورة المكونة للجملة الواحدة، وهذا النوع شائع الاستخدام في آي الذكر الحكيم ، فالمادة تدل علىٰ أصل المعنىٰ ، والصيغة تضع هذا المعنىٰ في قالب معين يضاف إلىٰ المعنىٰ المستفاد من المادة، فيأتي التكرار للصوت في كلمات متصلة؛ فيكون هذا لغرض بلاغي يؤديه هذا

(١)–كتاب السبعة في القراءات، أحمد بن موسىٰ بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي / ٣٨٨، وينظر: النشر في القراءات العشر٢/ ٣١٠.

(٢)–السابق/ ٦٧٢.

التكرار، كما أن تكرار المقطع يدل علىٰ تكرار الحدث، فمثلا قوله تعالىٰ: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم:٢] نجد أن صوت الراء تكرر في الكلمات الثلاث المتصلة، وهذا من التناسب الصوتي بين مطلع السورة بالحروف المقطعة - كما ذكرت من قبل-، وبين ما بنيت عليه سورة مريم من الذكر والرحمة، فالذكر بمعنىٰ التشريف والتكريم وعلو الدرجة، فبدأت بالذكر(ذِكْرُ) وأضيف الذكر إلىٰ الرحمة(ذِكْرُ رَحْمَتِ)، والرحمة أضيفت إلىٰ الرب(رَحْمَتِ رَبِّكَ)، وكل هذه الإضافات فيها تناسق صوتي يناسب مطلع ومقصد السورة الكريمة، حيث انتشار الرحمة في ثنايا السورة كلها، ومما يؤكد هذا رسم كلمة(رَحْمَتِ) بالتاء المفتوحة؛ مما يدل علىٰ كثرة الرحمة وعدم ربطها أو تقييدها بطائفة دون أخرىٰ، بل هي رحمة عامة وشاملة؛ مما يتناسق ويتناسب صوتيا من خلال صوت الحرف ومقصد السورة، فالراء صوت مكرر في ذاته مما يؤدي إلىٰ زيادة تردد الأمواج الصوتية[1]، فناسب تكرارها في ذاتها تكرارها في كلمات المطلع؛ مما أحدث تناسقا صوتيا يتلاقىٰ مع الغرض المقصود من تكرار الرحمة وشيوعها وانتشارها في السورة بصورة بينة، وهذا ما أحدثه هذا الصوت (الراء) في السياق العام للسورة، مما يؤكد بلاغة الصوت (الحرف) وأثره في الإعجاز القرآني.

(١)- ينظر: رسالة أسباب حدوث الحروف، أبي علي الحسين بن عبدالله بن الحسن ابن سينا/ ٨٢، شرح وتحقيق/ فرغلي سيد عرباوي، دار الكتب العلمية.

ومن نحو ذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البيِّنة:١] ، فصوت الكاف الحنكي يحكي تلك الشدة المستمدة من صفات هذا الحرف الشديد المهموس؛ حيث يحمل في طياته وفق هذا الاستعمال معالم الشدة والعنف، والغرض البلاغي في تكرار هذا الصوت خمس مرات في آية واحدة؛ ما يحمله من إيحاء، وتصوير دقيق لما ينتظره الكفار من عذاب وعقاب، إلىٰ جانب التصوير الفني الجذاب للموقف.

كذلك كان تضعيف صوت الحرف ملائما للمعنىٰ وهو مضاعفة وقته، فيستغرق زمنا أطول من زمنه المعتاد، وإذا ما ضوعف زمن الصوت دل ذلك علىٰ تكرار الحدث أو مضاعفته، والشواهد التي تؤكد هذا المعنىٰ كثيرة، كقوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فُصِّلَت:١٦] ، فمثلا: كلمة(صَرْصَرٍ)، وصف للريح الشديدة، وقد وردت الكلمة في سورتي الحاقة والقمر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩] ، ومن الشواهد قوله تعالىٰ: ﴿ فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد:١٥]، وقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير:١٧]، وقوله: (﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٤] .

نجد كلمة (صَرْصَرٍ) التي بوزن (فعلل) تكرار لصوت الصاد والراء، وفي الصاد صفير، وفي الراء تكرار انفجاري، غرضه البلاغي ما توحيه الكلمة من قوة الريح وشدتها وضراوتها؛ لذا وصفت بأنها عاتية، وهي الشديدة

العصف، وأصل العتو والعتي: شدة التكبر، فاستعير للشيء المتجاوز الحد المعتاد تشبيها بالتكبر الشديد في عدم الطاعة والجري علىٰ المعتاد، وهذا من التناسب الصوتي والتناسق للنظم القرآني؛ مما له الأثر الكبير في تدبر معاني القرآن الكريم، وتذوق دلالاته، وتكمن فائدته البلاغية في جعل أجزاء الكلام بعضها آخذا بأعناق بعض، فيقوىٰ بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء[1]، فقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، أي: "عاتية علىٰ خزانها، فخرجت بغير مقدار، أو علىٰ غير عاد، فما قدروا علىٰ أن يستتروا منها، ووصفت بذلك استعارة؛ لشدة عصفها"[2]. فنجد أثرا بلاغيا لصوت الحرف في الدلالة علىٰ المعنىٰ مقترنا بزمن الصوت في مناسبته للحدث، مع ما يوحيه تكرار الصوت من الشدة والقوة، يقول ابن عاشور:"(الصرصر) الرياح الشديدة، يكون لها صوت كالصرير"[3]، فهذا الصوت في مكانه يؤدي غرضه البلاغي، حيث يجسم المعنىٰ، ويهب للجماد العقل والحياة، زيادة في تصوير المعنىٰ وتمثيله للنفس، وهو ما يعبر عنه البلاغيون بالاستعارة ، يقول الألوسي: "ولعلها عبارة عن الشدة والإفراط فيها، وخرج ذلك في الكشف علىٰ الاستعارة

(١)- ينظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي١/ ١٣١، وقد أفرد بعض العلماء في هذا الموضوع مصنفات مستقلة، من أشهرهم: أبو الحسن البقاعي(ت٨٨٥ه) في كتابه: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، وجلال الدين السيوطي(ت٩١١ه) في كتابه: (مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع).

(٢)- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ١٠/ ٢٥٥.

(٣)- التحرير والتنوير،٢٩/ ١١٦.

التمثيلية ثم قال: إن المثل إذا صار بحيث يفهم منه المقصود من دون نظر إلىٰ أصل القصة جاز أن يقال: إنه كناية عنه كما فيما نحن فيه، وجوَّز أن يكون هناك تشبيه بليغ من العتو، وهو الخروج عن الطاعة "[1].

وفي قوله: ﴿فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٥] نجد صوت الطاء مع التشديد يصور مدىٰ التناسب لزمن الحدث، حيث صورة العذاب في النار يستحضرها الذهن في هذا المشهد، فدلالة الصوت يصف فرط الحرارة، فقيل إذا دنا منهم شوىٰ وجوههم، وانمارت فروة رؤوسهم، فإذا شربوه قطع أمعاءهم[2]، وهي صورة حسية عنيفة من العذاب، تناسب جو سورة القتال، وتتناسب مع غلظ طبيعة القوم، وهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، فالجو جو متاع غليظ وأكل غليظ، والجزاء ماء حميم ساخن وتقطيع للأمعاء، التي كانت تحش وتلتهم الأكل كالأنعام!، وهذا من الإعجاز البياني الذي يفيد في تحقيق مطابقة المعاني لما تقتضيه من الحال، وتتوقف الإجادة فيه علىٰ معرفة مقصد السورة وتصاعد معانيها، ويفيد ذلك في معرفة المقصود من جميع جملها[3].

ومثل هذا الإعجاز لأصوات الحروف في القرآن الكريم كثير، حيث يظهر جليا في أصوات الصفير (السين والصاد ، والشين، والكاف)، فكلمة (عَسۡعَسَ) في قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ [التكوير١٥-١٧] نجد أن صوت السين لثوي رخو مهموس، وسياق الآية

(١)-روح المعاني، ١٥/ ٤٧.

(٢)-ينظر: تفسير أبي السعود٨/ ٦٩.

(٣)- ينظر: نظم الدرر، البقاعي ١/ ٦.

قبلها يوحي بالغرض البلاغي لهذا الصوت ودوره في المعنىٰ، حيث أقسم الله سبحانه (بالخنس) وهي الكواكب التي تخنس في بعض دوراتها، فلا تبرز[1]، وعند التأمل لهذه الصورة التي جسدها القرآن نجدها تدل علىٰ السكينة والهدوء التام، الذي دلت عليه تلك الكلمات من خلال الزمن لهذا الصوت (السين)، فدل ذلك علىٰ أن الإعجاز البياني بدايته حروف المباني، فعلىٰ الرغم من تكرار نفس الصوت داخل الكلمة الواحدة إلا أنك تجد السهولة والسلاسة في الكلمة، وهي ترسم باقتدار الأجواء الليلية الهادئة؛ لأن تكرار صوت السين في (عَسْعَسَ) يناسب أجواء الليل الهادئة بما يحمله هذا الحرف من همس يختفي معه كل ظاهر، ويمكن فيه كل متحرك؛ مما يرجح معه أن يكون المعنىٰ المراد إدبار الليل؛ إذ عسعسة الليل وهدوؤه أشد ما تكون في آخره وقت السحر حين يسكن كل حيّ.

ومثل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس:١٤]، وعند التأمل في قوله تعالىٰ: (فَدَمْدَمَ)[2]، نجد كلمة (دمدم) فيها إيقاع شديد يناسب جوّ التدمير لقوم ثمود، واللفظة مؤلّفة من مقطعين «دم/ دم»، أو من مقطع متكرر، غرضها البلاغي المبالغة في الإيحاء بجوّ التدمير بما فيه من أحداث متكررة؛ حتىٰ يتحقّق التدمير

(١)-(الكنس): النجوم التي يخفيها ضوء الشمس، فكأنها في كناس، أي: بيت الظباء، و(عَسْعَسَ) أي: اشتد ظلامها.

(٢)- أي: أهلكهم، وأزعجهم، وقيل: الدّمدمة حكاية صوت الهرّة، ومنه: دَمْدَمَ فلان في كلامه، ودَمَمْتُ الثوب: طليته بصبغ مّا.(المفردات:٣١٨).

الكامل في النهاية[١]، ومن ثمَّ نجد قوله: (فَـدَمْـدَمَ) توحي بالغضب وما يتبعه من تنكيل، واللفظ ذاته (دمدم) يوحي بما وراءه ويصور معناه بجرسه، ويكاد يرسم مشهدا مروعا مخيفا! وقد سوىٰ الله أرضهم عاليها بسافلها، وهو المشهد الذي يرتسم بعد الدمار العنيف الشديد، **ففيه مناسبة الصيغة للمعنى من خلال تكرار الصوت مع تصوير المشهد والحدث**، يقول "ابن عاشور": "والمراد بهذه الدمدمة: صوت الصاعقة والرجفة التي أهلكوا بها...، يقال: دمدم عليهم أطبق عليهم الأرض، ويقال: دمم عليه القبر، إذا أطبقه، ودمدم مكرر دمم؛ للمبالغة مثل كبكب، وعليه فوزن دمدم فعلل"[٢]. وعند التأمل في اختيار العطف بالفاء وما توحيه من التناسب لزمن الحدث؛ لما فيها من معنىٰ التفريع، وهو تفريع العلم بانتفاء خوف الله منهم مع قوتهم؛ ليرتدع بهذا العلم أمثالهم من المشركين ، وقرأ ابن الزبير «فدهدم» بهاء بين الدالين، والمعنىٰ كما تقدم، وصرَّح بالسبب المحكي (بِذَنْبِهِمْ) مع دلالة الفاء عليه؛ للإنذار بعاقبة الذنب؛ ليعتبر به كل مذنب، فَفكا ن الضمير في قوله (فسَوَّاها) للدمدمة المفهومة من دمدم أي، فجعل الدمدمة سواء بينهم، أو جعلها عليهم سواء، فلم يُفْلت سبحانه منهم أحدا لا صغيرا ولا كبيرا، أو هو لثمود والتأنيث باعتبار القبيلة [٣].

(١)-ينظر: وظيفة الصورة الفنية في القرآن/ ٣٩٠.

(٢)- ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ٣٧٥.

(٣)- ينظر: روح المعاني١٥/ ٣٦٣.

ومن هنا تبين أنَّ نظم السور القصار كله يكاد يكون علىٰ نسق واحد مؤتلف النغم، متآخي الألفاظ، متلائم في نظمه وفي دقة اختيار الصوت(الحرف) الذي يتناغم ويتناسب مع المعنىٰ، فمن دقائق اختيار الحروف لتتناسب والمعاني، أنه قد يتناسب زمن الصوت ليس لزمن الحدث فقط، بل أيضا مناسبة زمن الصوت لحجم الحدث، أو قوته أو أهميته، أو عدده ويظهر هذا جليا في أحكام التلاوة من مد وغنة وإدغام وإظهار، وهذا يحتاج إلىٰ بحث منفرد، إن شاء الله.

ومن هنا تبين مدىٰ ارتباط علم البلاغة بالعلوم الأخرىٰ، وخاصة علم الصوتيات في الكشف عن بلاغة الصوت في القرآن الكريم، فعلم الأصوات يقوم بدراسة المفردة ومعرفة مخارجها من حنجرة وحلق ولسان وشفة، وكذا معرفة صفاتها من جهر وهمس وشدة ورخاوة وغيرها، ويعرف هذا الاتجاه من الدارسة الصوتية باسم(الفوناتيك)، كما يقوم باتجاه آخر يُعنىٰ بدراسة مواقع الأصوات من الكلمات من حيث وظائفها في الاستعمال اللغوي التواصلي، ويسمىٰ هذا الاتجاه باسم (الفونولوجيا)، أو علم الأصوات الوظيفي أو التشكيلي، وعلم البلاغة يُعنىٰ بالسياق والمقام، ومطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال، بل ومطابقة صوت الحرف للمقام ؛ لتأدية المعاني والأغراض.

ثالثا: تناسب زيادة المبنى لزيادة المعني[١] :

من بلاغة صوت الحرف أن المادة بحروفها الأصول المعينة ذات العدد المعين والترتيب المعين تفيد معنىٰ، فإذا أضفنا حرفا زائدا إلىٰ هذه الأصول أفادت الكلمة معنىٰ زائدا عن المعنىٰ المستفاد من الأصول يفهم من السياق، وهذا الصوت(حرف المبنىٰ) الزائد عن أصول الكلمة له دوره البلاغي في تأدية المعاني والأغراض، فيحدث نوعا من التناسب يكمن في (زيادة المبنىٰ لزيادة المعنىٰ)؛ لأن الألفاظ أوعية للمباني، فإذا ما اتسع الوعاء دل علىٰ زيادة المعنىٰ، وهذا كثير جدا في النظم القرآني، كما فيقوله تعالىٰ علىٰ لسان العبد الصالح: ﴿ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف:٧٨]، وهذا هو كتابة الكلمة الطبيعي (تستطع)، ووردت مرة واحدة في القرآن الكريم، ثم قام العبد الصالح بسرد كافة الأحداث التي مرت بهما والأسباب الخفية التي جعلته يعيب السفينة، ويقتل الغلام، ويقيم الجدار.

وكان من الطبيعي أن تأتي كلمة (تستطع) برسمها العادي متمشية مع سرد العبد الصالح لهذه الأحداث، وبيان ذلك لموسىٰ عليه السلام بحكمة، ورؤية، وتؤدة، كما جاء بالآيات ٧٩- إلىٰ٨٠ من سورة الكهف، غير أن القرآن الكريم استخدم كلمة (تسطع) بالرسم غير العادي حيث نقص منها

(١)- للمزيد: ينظر الكتب المتخصصة في إعجاز الرسم القرآني، وبالتحديد قاعدتي الحذف والزيادة، فهذا باب كبير درس عند أكثر من عالم، لعل أشهر هذه الكتب من الناحية البلاغية (لطائف وأسرار خصوصيات الرسم العثماني، د/ عبدالعظيم المطعني، قامت بطبعه قريبا مجلة الأزهر)، وأذكر هنا بعض الشواهد القرآنية علىٰ عجل؛ لإثبات القضية التي نحن بصددها.

حرف (التاء) في وسط الكلمة، وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم، وهي آخر قصة مع سيدنا موسىٰ مع العبد الصالح حيث يلخص الموقف الذي كان عليه موسىٰ خلال رحلته بأنه كان متعجلا وغير صبور، فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا﴾ [الكهف:٨٢]، فحذفت (التاء) من كلمة (تستطع)؛ لبيان قصر الكلمة وعدم تراخيها بسبب العجلة، وقلة الصبر التي كان عليها موسىٰ عليه السلام أثناء مصاحبته للعبد الصالح؛ ليتعلم منه رشدا؛ لذلك جاءت الكلمة ناقصة الحروف ضيقة المبنىٰ؛ لتوحي بعدم استطاعة الصبر، فكان مبنىٰ الكلمة مبينا لمعناها أصدق تبيان[1].

ومن الشواهد القرآنية الواضحة في تناسب زيادة المبنى لزيادة المعنى: ما ورد من كلمات قرآنية، حيث إلحاق صوت (الألف) في نهاية الكلمة، حيث الدلالة علىٰ معان يقتضيها السياق، ونرىٰ هذا واقعا في الآيات التي تصف أحداثا أو شعورا، أو أفكارا وانفعالات عنيفة فقوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤]، نجد هذا الأسلوب فيه من الهدوء والطمأنينة ما فيه، فهو هدوء الحق الراشد إلىٰ الصراط المستقيم، أما قوله تعالىٰ: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:١٠]، فالمقام فيه عنف، وحركة واضطراب وانفعالات بلغت فيها القلوب الحناجر، وكأن الموقف يكاد ينفجر لولا هذا الانطلاق، فأدىٰ هذا الصوت في نهاية الكلمة(الظنونا) هذه المعاني الدقيقة من هذا الامتداد المفهوم من صوت(الألف) فناسب

(١)- ينظر: إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة، محمد شملول / ١٣١، ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة١٤٢٧ه، ٢٠٠٦م.

السياق والمقام، وأمعن النظر في السياق الآية(﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب: ١٠]،نجد دقة النظم القرآني في استواء النسق الأسلوبي؛ بما أحدثه هذا الصوت حيث ترىٰ القوم في طوقان من الهول والهلع والخوف والرعب الشديد، لا يثبت فيه إلا الرجال الذين ثبتهم الله علىٰ الحق، فإبراز هذا الصوت؛ إشارة إلىٰ أن هذه الظنون كثيرة ومتعددة حيرت العقول حتىٰ كادت أن تخرج عنها، فناسب ذلك إلحاق هذا الصوت، وقد يكون إبراز هذا الصوت ؛ إشارة إلىٰ إبراز المنافقين ما بداخلهم من النفاق.

وجاءت كلمات أخرىٰ فيها هذا الصوت (الألف) في سياق آخر مثل قوله تعالىٰ:﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧] ،والمقام هنا مقام حسرة وندم، فهي صيحة قوم تتقلب وجوههم في النار، يتحسرون علىٰ ما فاتهم من طاعة الله ورسوله، (﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ [الأحزاب:٦٦]، فناسب صوت الألف في نهاية الكلمة هذا الموقف الذي تشيب منه الولدان، وهذا الندم الشديد، والحسرة التي لا تنقطع.

وقد تزاد أصوات في بعض المواضع والكلمات من القرآن، وليست الزيادة إلا لتحقيق غرض بلاغي يقتضيه السياق، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾

وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة١٩ :٢٩]" ، وقوله تعالىٰ: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة٩ :١١].

عند التأمل في نظم الآيات يلحظ زيادة هاء السكت في فواصل الآيات: (كتابيه، حسابيه، ماليه، سلطانيه)، (هاوية، ماهيه، حامية) ، وهي لا تعدو أن تكون لرعاية الفاصلة، غير أن القول بزيادة هاء السكت لرعاية الفاصلة قد يتعارض مع المعنىٰ، وهذا مما لا يجوز ولا يصح أن يقال عن آي القرآن الكريم ؛ لأن الفواصل تبع للمعنىٰ لا العكس، إلا أن ما يمكن ملاحظته أن الهاءات جاءت في فواصل الآيات، وصوتها ناتج عن الانفراج الواسع لأعضاء النطق، وقد نشعر عن نطقنا للهاء أنه صوت يخرج من أعماقنا، مما يجعله صالحا للتعبير عن مشاعرنا وأحاسيسنا، ولذلك نتصور أنه تعبير عن آهات وحسرات الناس يوم الحشر، وهم حفاة عراة، ينتظرون أدوارهم في قلق واضطراب، فمن أخذ كتابه بيمينه، فقد فاز الفوز العظيم، ومن أوتي كتابه بشماله، فقد خسر الخسران المبين.

كل هذا جاء من زيادة هذا الصوت الذي أدىٰ الغرض منه في التعبير عن السياق الذي تدور حوله الآيات، وتصوير المشهد بطريقة جلية واضحة تتمثل من خلال حرف واحد، فعناية القرآن بالجانب الصوتي من حيث المشاكلة والتناسق والتناسب للمعاني لا يعني أبدا الإخلال بالمعنىٰ، بل جاءت هذه العناية لتضفي علىٰ الأسلوب قيمة دلالية وجمالية يتحقق بمقتضاها الإعجاز.

يتأتىٰ هذا من الوقوف عند بلاغة صوت الحرف في حالة الزيادة والنقص، حيث انتقاص بعض حروف الكلمة عن أصل حروفها يعد من بلاغة النظم القرآني؛ مما يدل علىٰ نقص زمن الحدث، ومن ثمَّ يدل علىٰ سرعته، أو عجلته حسب السياق والمقام، فيكون حذف الصوت؛ لدلالة بلاغية كما في (خالدا، وخالدون، وخالدين) ومشتقاتها، ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥] ، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة:١٦٢] ، ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٤] ، حيث وردت في القرآن الكريم(٧٢ مرة)كلها بدون ألف وسطية؛ ويوحي عدم ورود الألف الوسطية بالتصاق الكلمة واستمرارها بدون أي فاصل، فالغرض البلاغي لهذا النقص في المبنىٰ ما توحيه الكلمة بالخلود الدائم.

ومثلها كلمة (خلائف)كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥] ، وردت (٤ مرات) في القرآن الكريم كلها بدون ألف وسطية؛ لتوحي بالتصاق الخلائف بعضها مع بعض واستمرارها بدون انفصال أو انقطاع، كذلك يمكن القول: إن مضاعفة الزمن المبذول في كتابة الكلمة القرآنية، أو نقص هذا الزمن حسب زيادة أو نقص الحروف عن أصول الكلمة، يوحي بنفس ما يوحي إليه زيادة أو نقص زمن الصوت؛ لأن إعجاز الكلمة القرآنية يتمثل في كتابتها وتلاوتها وبيانها. وهناك من يزعم أن حذف الصوت من بنية الكلمة، أو زيادته كان؛ لرعاية الفاصلة، فيحرص القرآن علىٰ توافق الفواصل، ولكن

هناك من العلماء من رد هذا القول[1]، وأفادت بأن حذف الصوت أو زيادته؛ يكون لأغراض بلاغية يقتضيها السياق والمقام، تقول: "وأما تعليل الحذف برعاية الفاصل، فليس من المقبول عندنا أن يقوم البيان القرآني علىٰ اعتبار لفظي محض، وإنما الحذف لمقتضىٰ معنوي بلاغي، يقويه الأداء اللفظي، دون أن يكون الزخرف الشكلي هو الأصل، ولو كان البيان القرآني يتعلق بمثل هذا، لما عدل عن رعاية الفاصلة في آخر سورة الضحىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضُّحىٰ:١١]، وليس في السورة كلها (ثاء) فاصلة، بل ليس فيها حرف الثاء علىٰ الإطلاق، ولم يقل تعالىٰ: فخبرْ؛ لتتفق الفواصل علىٰ مذهب أصحاب الصنعة ومن يتعلقون به"[2].

ثم عللت غرض الحذف البلاغي قائلة: "ويبقىٰ القول بأن الحذف؛ لدلالة ما قبله علىٰ المحذوف، وتقتضيه حساسية معنوية مرهفة، بالغة الدقة في اللطف والإيناس، هي تحاشي خطابه تعالىٰ لحبيبه المصطفىٰ في مقام الإيناس: ما قلاك. لما في القلىٰ من الطرد والإبعاد وشدة البغض، أما التوديع فلا شيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بالفراق علىٰ كره، مع رجاء العودة واللقاء"[3].

---

(١)- الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ).

(٢)- التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ ١/ ٣٥، دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السابعة.

(٣)-التفسير البياني للقرآن الكريم١/ ٣٥.

ومن نقصان حروف بعض الكلمات؛ للدلالة على المعاني والأغراض:

قوله تعالى: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى:٢٤] ، حذفت (الواو) من (وَيَمْحُ) مع أن الفعل مرفوع، وليست هناك علة نحوية لحذف الواو، فغرضه البلاغي؛ الإشارة إلىٰ سرعة ذهابه واضمحلاله، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُكُرٍ﴾ [القمر:٦] ، حذفت (الواو، والياء) من(يَدْعُ الدَّاعِ)؛ للإشارة إلىٰ سرعة الدعاء، وسرعة إجابة المدوعين، وقيل علة الحذف "أنه أمر غيبي سيكون يوم القيامة، وعلماء القرآن يطلقون علىٰ هذا أنه: شأن ملكوتي، أي غير واقع الآن"(١)، ومما حذف لنفس الغرض البلاغي قوله تعالىٰ: ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق:١٨] حذفت (الواو) من (سَنَدْعُ)؛ للإشارة إلىٰ سرعة الفعل وإجابة الزبانية وشدة البطش.

ومن الإعجاز البياني لحذف الصوت قوله تعالىٰ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر:٤]، فقد قرأ أهل الحجاز (يسري) بإثبات الياء في الوصل، ويقف ابن كثير ويعقوب بالياء-أيضا- والقراء الباقون يحذفون في الوصل والوقف(٢)، واستحسن الفراء(٢٠٧هـ) هذه القراءة، وعدها الأنسب؛ إذ يقول: "وحذفها أحب إليّ لمشاكلتها رؤوس الآيات؛ لأن العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها"(٣)، غير أن القاعدة المشهورة عند النحاة هي إثبات لام

(١)-لطائف وأسرار خصوصيات الرسم العثماني، د/ عبدالعظيم المطعني/ ٤٨.

(٢)-ينظر: كتاب السبعة في القراءات/ ٦٨٣.

(٣)- معاني القرآن، الفراء٣/ ٢٧٣، تحقيق عبدالفتاح إسماعيل، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٢.

الفعل في المضارع المعتل الآخر، وقد يكون لحذف هذا الصوت المديد علاقة بالسياق؛ ليدل دلالة بلاغية تفهم من خلال هذا الحذف، وهي بيان قصر سريان الليل، فعبر القرآن عن الزمن القصير بحذف الصوت ، وما يذهب إليه أن مشاكلة الفاصلة ليست علة عامة، إذ ليس من الصعب أن يأتي النظم القرآني بلفظة أخرىٰ تؤدي المعنىٰ نفسه والغرض ذاته من دون أن يتكلف في ذلك حذفا يشاكل به الفواصل السابقة، وقد يكون الحذف بسبب طول الآية، فلا يجوز إلا في مقام يستدعيه ضرب من التناسب، كهذه الآية ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ ، فبالإضافة إلىٰ رعاية الفاصلة القرآنية القائمة علىٰ الراء المكسورة، تأبىٰ أن تطول الكسرة بعد الراء في الفعل(يسر)، فيكون منها إطالة الصوت، وفي ذلك مراعاة لطول الفواصل التي تضمنتها الآيات، ولما كانت الآيات لا تحمل ذاك الطول المقدر، حذفت تناسبا فضلا عن العلة البلاغية وهي: "الرمز إلىٰ التفرقة بين المعاني الذهنية المعنوية التي لا صورة لها محسوسة ماديا في الوجود وبين المعاني المادية المدركة بإحدىٰ الحواس الخمس"[1] .

فالمراد أن الناس لا يرون سرىٰ الليل بأبصارهم، بل يدركون ذلك(السُرىٰ) بعقولهم وأذهانهم، ففي نقص الياء دلالة علىٰ أن سُرىٰ الليل يدل علىٰ نقصانه شيئا فشيئا، وهذا معنىٰ بالغ في الدقة، وهو نقصان الليل نفسه في الواقع.

(١)- لطائف وأسرار خصوصيات الرسم العثماني، د/ عبدالعظيم المطعني/ ٣٠.

من هنا يمكن القول:

إن صغر الكلمة وانكماشها وضغطها بحذف حرف يزيد من وقعها وسرعتها والتصاقها، بالإضافة إلىٰ ما يوحي ذلك من دلالات أخرىٰ – وصفت عند البلاغيين بـ (مستتبعات التراكيب)– تتمشىٰ مع المعنىٰ المراد ويوضحها السياق، والأمثلة علىٰ هذا كثيرة في القرآن الكريم– والأمر يحتاج إلىٰ دراسات علمية واسعة، يفيض الله بها علىٰ عباده– فمثلا كلمة: (الطلاق) كتبت بحذف الألف؛ للدلالة علىٰ أنه يجب أن يكون في أضيق الحدود، وكلمة (أمواتا)حذفت؛ للدلالة علىٰ السكون والهدوء، وكلمة (الصاعقة) حذفت؛ لما فيها من معنىٰ السرعة، والتهوين من الشأن في قوله(كيد ساحر)، والقرب والألفة في قوله تعالىٰ: (أمهاتكم)، وقوله(لإيلاف قريش)، وقوله(والأرض فراشا)، وقوله (صاحبة)، (أصحاب)، (أزواج)؛ للدلالة علىٰ وجود التصاق لصفة الكلمة، أي أنها واحدة، فالألف تمثل نوعا من الفصل أول الانفصال، وعدم وجودها يوحي بالقرب والالتصاق(١).

وقد تلاحظ وجود كثير من الكلمات القرآنية قد تم حذف الألف من وسطها خاصة الكلمات التي تدل علىٰ الجمع، الأمر الذي يستلزم تضافر الجهود من علماء الأمة في جميع فروع اللغة والعلم؛ للتدبر والتفكر للوصول إلىٰ تلك الأسرار واللطائف من نظم القرآن العظيم الذي لا تنقضي عجائبه. من هنا تبين أن حذف الحرف وزيادته من بنية الكلمة في القرآن الكريم ظاهرة من الأهمية بمكان، حيث أبرزت من خلال هذا الصوت المحذوف أو الزائد أغراضا بلاغية وجمالية، فضلا عن موافقة الفاصلة.

❁❁❁❁❁

(١)– ينظر: إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة، محمد شملول / ٦٢، ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة١٤٢٧ه، ٢٠٠٦م.

الخاتمـــــــــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين وبعد:

ففي نهاية المطاف لهذه الرحلة الماتعة مع صوت الحرف داخل الكلمة القرآنية التي هي من كلام الله الخالق، وهي كلمة محكمة ليس بها عوج، حيث جاءت حروفها معجزة بيانية في الدلالة علىٰ الغرض منها بأصواتها وحركاتها بزيادة حرف داخل الكلمة أو نقصانه، فدلَّ مبنىٰ الكلمة علىٰ معناها أصدق دلالة في اختيار الصوت، وحركته ؛ مما يدل علىٰ دقة النظم القرآني الذي تفجرت منه شتىٰ أنواع المعارف والعلوم، فكان معجزها ومنبعها، فالفقيه يستنبط منه الأحكام الشرعية، والنحوي يبني منه قواعد التراكيب والصيغ، والبياني يهتدي به إلىٰ حسن النظام وطرائق الفصاحة والبلاغة في صوغ الكلام، والمفسر يشرح آياته ويبين غريبه ومحكمه ومتشابهه، وهكذا فكل باحث في أي علم لا شك أنه يجد فيه بغيته، ولا غرو أن يكون للقرآن الكريم شأن عظيم في أمر المسلمين، فهو النموذج الذي يحتذىٰ به في أساليب البلاغة، وهو منبع فلسفتهم الروحية والخلقية والسياسية والاقتصادية.

ومن خلال هذه الدراسة توصلت إلى أهم نتائج البحث وتتلخص في الآتي:

- **الدرس البلاغي يتميز بإظهار أثر مطابقة الصوت للمعاني.**
- **إن للصوت اللغوي أهمية في دارسة النص القرآني، من حيث إنه البنية اللغوية الصغرىٰ المكونة للكلمات والتراكيب.**

- تعد الأصوات اللغوية جانبا مهما في إعجاز التعبير القرآني، وهي ذات أبعاد جمالية شاخصة متحركة.
- إن القرآن ينتقي الأصوات بحسب الدلالات قصد تجسيد المعاني في أحسن صورة.
- تنشأ دلالة الصوت بداية من التراكيب، وقد اتسم الصوت القرآني بقوة التأثير انطلاقا من سهولة الأصوات حين ائتلافها، وإحساس الأذن بعذوبتها حين الترنم والتطريب.
- ارتباط الفاصلة القرآنية بمعاني التراكيب والآيات، فلم يقتصر علىٰ رعاية حسن النظم فحسب، وإنما اهتم مع ذلك وقبله بالمعنىٰ.
- اتفقت نظرة الدراسات اللغوية الحديثة مع آراء القدماء في قدرة الحركات علىٰ توجيه معاني الألفاظ علىٰ وفق ما يريده المتكلم.
- هناك ارتباط وثيق بين العلامة والغرض الأمر الذي جعل العرب تعرب كلامها، وهذا هو مدار الدرس البلاغي؛ لتأدية المعاني والأغراض، حيث قامت الحركات بهذا الدور الرائع في بيان اتساق ألفاظ القرآن بحروفه، ومفرداته، وتراكيبه، والعلامة إشارة منطوقة أو مكتوبة، تعبر عن تقرير منشئ الكلام للعلاقة بين معاني المفردات حسب ما يريد المتكلم.
- صفات الأصوات أساس كبير يُضم إلىٰ مخرج الحرف في تأدية المعاني والأغراض؛ حيث تجعل لصوت الحرف أثرا بلاغيا في التناسب من خلال صفات الصوت والمعنىٰ، وتناسب زمن نطق الصوت لزمن الحدث، وتناسب صيغة اللفظ للمعنىٰ، والتناسب في زيادة المبنىٰ لزيادة المعنىٰ.

• استنباط معاني اللفظة العربية من صدىٰ أصوات أحرفها في النفس يتطلب الملكة البلاغية (الذوقية)، وطول معاناة مع أصوات الحروف ومعانيها، ولا يدرك هذا إلا المتمرس في فنون العربية، ممن يتحلون برهافة الأحاسيس، وشفافية المشاعر، علىٰ كثير من الصبر الجميل.

توصيات:

▪ لاتزال مكتبة كليات اللغة العربية في احتياج إلىٰ الاستزادة من المراجع والمصادر، والرسائل العلمية المتنوعة (ماجستير ودكتوراه) التي تعنىٰ بدراسة أصوات الحروف، وبيان أثرها البلاغي في الإعجاز القرآني.

▪ إبراز معالم التلاقي بين البلاغة العربية والدراسات الصوتية العربية قديما وحديثا، وتطبيق ذلك في ضوء تراثنا اللغوي.

▪ أن تخصص الدراسات العلمية بدراسة كل صوت كل علىٰ حده، حتىٰ تعم الإفادة.

وبعد :

فهذا عملي وجهدي المتواضع، فإن وفقت فمن الله وحده، وله الحمد والمنّة، وإلا فمن نفسي والشيطان، وحسبي أنني اجتهدت وبذلت ما في وسعي، وأرجو من الله تعالىٰ العفو والمغفرة، وصلِّ اللهم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلِّم تسليما كثيرا.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، عبدالحميد هنداوي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة٢٠٠٤م.

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفىٰ صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط٨ – ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م.

إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة، محمد شملول، ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١ – ١٤١٨هـ.

بحث في علم الجمال، جان برتليمي، ترجمة: الدكتور أنور عبدالعزيز، مراجعة الدكتور: نظمي لوقا، دار نهضة مصر.

البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، المحقق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، الفيروزآبادىٰ، المحقق: محمد علي النجار، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.

بيان المعاني، عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني، مطبعة الترقي – دمشق، ط١، ١٣٨٢هـ – ١٩٦٥م.

البيان والتبيين، الجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ .

تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر – تونس، سنة النشر: ١٩٨٤ه.

تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ دار إحياء التراث العربي – بيروت.

التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ، دار المعارف – القاهرة، الطبعة: السابعة.

تفسير المراغي، أحمد بن مصطفىٰ المراغي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٦٥هـ – ١٩٤٦م

جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م.

حجة القراءات، ابن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، ط٥، مؤسسة الرسالة ١٩٩٧م.

خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، (رسالة دكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولىٰ)، عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني ، مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، ط٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي، المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق.

دفاع عن القرآن الكريم أصالة الإعراب ودلالته علىٰ المعاني في القرآن الكريم واللغة العربية، محمد حسن حسن جبل ، ط٢، البربري للطباعة الحديثة، مصر ٢٠٠٠م.

ديوان المتنبي، تحقيق د/ درويش الجويدي، المكتبة العصرية.، بيروت.

رسالة أسباب حدوث الحروف، أبي علي الحسين بن عبدالله بن الحسن ابن سينا، شرح وتحقيق/ فرغلي سيد عرباوي، دار الكتب العلمية.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي،٣/ ٣٠ المحقق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥ه.

سر صناعة الإعراب، ابن جني، تحقيق: مصطفىٰ السقا وآخرين، مطبعة البابي، القاهرة.

سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي الحلبي، دار الكتب العلمية

علم الأصوات/ كمال بشر، دار غريب للطباعة، القاهرة.

علم الدلالة، د/ إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٦م.

غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، المحقق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلميه – بيروت، ط١ – ١٤١٦هـ .

كتاب السبعة في القراءات، أحمد بن موسىٰ بن العباس التميمي، أبو بكر بن مجاهد البغدادي ، المحقق/ شوقي ضيف، دار المعارف – مصر، ط٢، ١٤٠٠هـ.

كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله ، دار الكتاب العربي – بيروت، ط١ – ١٤٠٧ هـ.

لسان العرب ، محمد بن مكرم بن علىٰ، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعىٰ الإفريقىٰ، دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ .

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ – ١٤٢٢هـ.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، المحقق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م .

معاني القرآن ، الفراء، تحقيق عبدالفتاح إسماعيل، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة ١٩٧٢ .

معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج ، المحقق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م.

مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠هـ.

المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانىٰ، المحقق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٢هـ.

النشر في القراءات العشر، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف، المحقق/ علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرىٰ [تصوير دار الكتاب العلمية] .

نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

وظيفة الصورة الفنية في القرآن، عبد السلام أحمد الراغب، فصلت للدراسات والترجمة والنشر – حلب، ط١، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

❁❁❁❁❁